رواية

خيانات السيد وقت

أحمد البشري

رواية خيانات السيد وقت

أحمد البشري

الكتاب: **خيانات السيد وقت**

المؤلف: **أحمد البشري**

التصنيف: **رواية**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: يناير (كانون الثاني) 2013

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9948-425-38-0

تصميم الغلاف: محمد الأمير

طبعت في مطابع المتحدة للطباعة والنشر United Printing & Publishing

Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر
www.mdrek.com - read@mdrek.com

أحمد البشري

رواية خيانات السيد وقت

الإهداء

إلى صوت الحمامة الذي يوقظني كلّ يوم..

إلى الحمامة التي وضعت صغارها على نافذتي لتموت بعيار طائش!

مقدمة

في الثمانينات, حين لم يكن الوقت رائجًا, كان الرجل الواقف خلف سماعة الخط الأرضي الذي يحمل الرقم 961, ذاك الرجل ذو الصوت الهادئ الذي يتقاضى ريالاً عن كلّ مرّة تسأله عن الوقت, كان هو المتحكم الرئيسي بالوقت, وبحسب توقيت ساعته تسير الدولة, يؤذَّن للصلاة, يصيح الديك أحيانًا, تطير طائرات الخطوط المحلية, وتتأخر كذلك, يعلن هلال شهر رمضان, ويذيع ماجد الشبل نشرة الأخبار الرئيسية, ويتفاخر الأطفال الذين تسنى لهم شراء ساعات يدوية, أمام أطفال آخرين حظوا بذات الشرف, أيّهم يحمل الساعة الأكثر دقة, الأطفال الذين لم ينتبهوا بعد أنّ الساعة ذات العقارب التي يتوقون لاقتنائها سوف تلاحقهم وتأكل حياتهم لآخر ما يتبقى منها.

كان الوقت يعني بالضرورة المعنى الفيزيائي للساعة الدائرية في صوالين المنازل السعودية, في منتصف الصالة وفي مقابل مدخلها, قبل أن تظهر الساعات الرقمية كان الوقت هامشيًا آنذاك وتنحصر استخداماته في بدء المدرسة والعمل وانتهائهما, وإذا ما كان السعوديون قد تناسوا عمدًا كل الموروث الشعبي والديني الحاثّ على الاستفادة منه بأقصى طاقة ممكنة, فإن ذلك لم يثبط من عزيمة الرجل الكريم الذي ما فتئ يذكّر السعوديين بالوقت وفي أي وقت أو مكان, ورحابة صدره وهو يستقبل الشتائم التي يطلقها الأطفال الذين تعلموا للتو في شوارع المدن السعودية شتائم جديدة ولم يجدوا أحدًا مناسبًا للشتم.

الفصل الأول

لا أحد يعرف أيوب, وأيوب بدوره لا يعرف مايكل ميناكر الذي درس الأحياء في جامعة فرجينيا لسنوات عدة, واكتشف بعد ليال طويلة قضاها ما بين البكاء واليأس وعلى سبيل الصدفة أن الضفادع تقدّس الوقت أكثر من الإنسان, وأنه إذا ما كان الرجال أمثال أيوب يحملون ساعاتهم في أيديهم, فإن تلك الكائنات الضعيفة والضئيلة تحملها في شبكية العين على هيئة خلايا حية, وبرغم أنه لم يحدث قط أن استحوذ ضفدع على انتباه أيوب باستثناء الضفدع كامل, ولم يسمع عن آخر يحمل ساعة كلما قفز فوق المستنقع الذي يلهو حوله.

اكتشف مايكل الذي لا يعرف أيوب كذلك, بعد أن انتزع هذه الخلايا الوقتية من أعين الضفادع وأبقاها حية, ثم وضعها في محاليل مغذية, ليلاحظ دقاتها أو إيقاعاتها الزمنية, بأن الساعة البيولوجية للضفادع أكثر دقة من ساعات رولكس الباهظة التي يخطط لشرائها, وأكثر هشاشة من الساعات الصينية المزيفة التي تعمل أحيانًا وتتوقف في أحايين كثيرة, ومع ذلك يصر أيوب على ارتدائها منذ حصل عليها عن طريق أحد الباعة المتجولين على أحد أرصفة أنقرة الباردة.

ففي الوقت الذي كانت فيه ساعة حائط أيوب, وساعة هاتفه تشير إلى الساعة السابعة ودقيقة صباحًا, كانت ساعة ميدان الكيزلاي الشهيرة في وسط المدينة, وساعات كل سائقي الحافلات, بالإضافة إلى ساعات الحافلات الخارجية, وساعات رجال المرور, وساعة بائع الشابورة المتنقل الذي يفتح أبواب عربته الصغيرة مبكرًا كل صباح, ويستقبل صغار العصافير والحمام بفتات الخبز, قبل أن يستقبل أول زبائنه من العائدين من صلاة الفجر في مسجد السلام الشهير, بالإضافة إلى ساعات الفتيات اللواتي وقفن على شُرفات أنقرة ينتظرن الصباح أن يفتح عينيه عن مغامرات جديدة؛ في هذا الوقت كانت كل هذه الساعات تشير إلى الثامنة ودقيقة.

أيوب لم يوقظه صوت منبه جارته خيرية في السابعة وخمس دقائق مثل كل الصباحات, خيرية التي دأبت على معايرة ساعتها البيضاء التي تضعها على مرمى بصر الجيران إلى جانب قفص الببغاء الإفريقي على شرفتها الضيقة, الذي يصدر بدوره صوتًا آخر أكثر حدة فور انطلاق جرس المنبه, ما يجعل النوم في نهارات وسط الأسبوع أمرًا مستحيلاً على سكان الشقق القريبة من شقة العجوز خيرية. أما أولئك الذين يحظون بإجازاتهم السنوية فيتعين عليهم أن ينتظروا حتى الساعة السابعة وخمس دقائق قبل أن يشرعوا في النوم, أو يوافقوا إجازتهم مع إجازتها.

إذًا فالصباح قد بدأ بشكل آخر بالنسبة لأيوب, وقد فهم ذلك منذ أن نظر إلى ساعته التي تشير إلى السابعة وثلاثة وعشرين دقيقة, لذلك قام مسرعًا فتعثر بشرشف سريره المقلم بالأزرق, وسقط من علو على يديه اللتين ركزهما بسرعة على الأرض, وأسرع إلى الحمام, وفور وصوله نظر إلى وجهه على المرآة المكسورة والتي تقسم وجهه إلى نصفين, فأدرك أكثر بأن هذا النهار, لا يبدو طبيعيًا حتى الآن.

وحين رفع بصره قليلاً عن وجهه في المرآة, رأى خيوط الصباح الأولى تقتحم شقته الصغيرة, الضوء الذي اعتاد أن يكون أقل حدة في مثل هذا الوقت من النهار, الوقت ذاته الذي يصيح فيه الببغاء وساعة جارته خيرية التي تحظى بنوم ثقيل, بالإضافة إلى صوت بائع الشابورة الذي يتسلل من شقوق البناية المتهالكة.

في أسبوع الشتاء الأخير؛ كانت الأشياء في شقة أيوب قد عادت لتتمدد, بعد شتاء قارسٍ مرّ سريعًا, جعل مفاصل الأبواب الثلاثة تصدر صريرًا كئيبًا, ولما كان الصوت لا يحتمل عمد أيوب إلى ترك الأبواب الداخلية مفتوحة للبرد والليل, وهو ما يجعل تيار الهواء البارد يلتفّ في كل مكان, وفي ذلك الصباح, كان الهواء الشماليّ يتسرب من نافذة المطبخ, التي تركت مفتوحة بعد أن نبهته الرائحة إلى بقايا الطعام على المنضدة الجانبية في مطبخه.

ما إن خرج من الحمام بعد أن طرد جزء صورته الأيمن من المرآة المكسورة فوق المغسلة الرخامية, وبعد أن فتح عينيه على اتساعهما لينظر إلى شعيرات ذقنه الصغيرة, من خلال مرآته اليدوية البديلة التي وضعها في ظهر الباب, حتى أحس بتيار الهواء يصيب وجهه المبلل, ويتلاعب بالستارة الوحيدة والممزّقة, ومن ثم يترك غرفة النوم بعد أن يبعثر الأوراق, ومن ثم يخرج من الباب المفتوح بالكامل إلى مكان آخر في شقة أيوب وهو يتابع هذا المشهد وكأنه ينظر إلى ضيف ثقيل يهمّ بالخروج, ويسقط معه ساعة الحائط فوق باب غرفته الذي أصدر بدوره صوتًا غريبًا هذه المرة, ليعود الهواء إلى المطبخ ويخرج من النافذة حاملاً معه رائحة خوف أيوب, مُخلفًا وراءه رائحة الطعام المتعفن والكثير من القلق.

حتى هذه اللحظة لا يبدو الصباح مكررًا لأيوب, ولا محببًا, فهو الآن متأخرٌ كما تشير ساعته, وقد سقط من سريره, بالإضافة إلى أن منبه وببغاء جارته خيرية لم يصدرا صوتًا حتى الآن, وهو ما لم يحدث منذ أن سكن في هذه البناية, خصوصًا بعد هذا الشتاء الذي يريده أن ينتهي بطريقة مثالية, لأن قصته مع إيليف تنتظر مجيء الربيع لكي تُزهر.

كان قد تعرف على «إيليف» الفتاة التي رآها في ليلة باردة من ليالي أنقرة, في مقهى صغير في الجادة السابعة, حين جلست على كرسيّ خشبي أمام الواجهة الزجاجية, أمام المئات من السياح وأبناء المنطقة الذين يجوبون الشارع الأشهر في أنقرة, وعلى الرغم من وجود مئات آخرين من رجال الشرطة بعد عملية إرهابية شهدتها أنقرة, وكاميرات تصوير إحدى المسلسلات التلفزيونية, وعشرات الوفود السياحية, إلا أن المكان بدا خاليًا بالنسبة لأيوب, فانقطعت أصوات الموسيقى التي كانت تصله من العازفين المتجولين, ودعاء المتسولات اللواتي افترشن الطرق المؤدية إلى المطاعم الراقية, وتوقف أطفال السّياح عن اللعب, فيما اكتفى البقية الذين مرّوا بجوار أيوب بالمشي بصمت, وكأنهم يمشون على الهواء, فلا وقع أقدامهم يشتت ذهن أيوب, ولا خيوط دخان الأراجيل التي يقدمها المقهى ذاته تحجب رؤية الفتاة الهادئة, التي تجلس وكأنها تمثال نصب في واجهة أحد محلات الملابس الشهيرة.

في هذا الوقت لم يدر في رأس أيوب بأن ليلته الفائتة, التي انتهت في الساعة الحادية عشرة بغسيل ملابسه الداخلية, الملابس التي تكدست طوال أسبوع الشتاء الأخير, ليلته التي لم يفعل بها شيئًا سوى أنه جلس أمام التلفزيون وهرش بطنه بكلتي يديه, بعد أن أدخل يده تحت قطعة الملابس الأخيرة في خزانة ملابسه, وقطعة الملابس الوحيدة المتبقية على جسده كذلك, ليلة الشتاء الأخيرة كما سيشير لها التلفزيون الرسمي في نشرة الأخبار التي لم يشاهدها أيوب, وهي ليلة الشتاء الأخيرة على ورق الحكومة وعلى ساعاتها, دون أن يطلقوا أية وعود بأنّها ستكون ليلة البرد الأخيرة.

ليلة الشتاء الأخيرة التي لم ينظر فيها أيوب ولو لمرة واحدة إلى ساعته, أو إلى ساعة الحائط, ليلته الأخيرة التي بقيت خارجة على قانون الزمن, والتي لم يعلم حتى هذه اللحظة بأنها ستكون أقصر من كل الليالي التي سيعيشها, لذلك حتى وإن كان صباحه حتى هذه اللحظة مبعثرًا, ومتأخّرًا عن العمل, وعن فتاته التي تنتظره على ناصية شارع تونس, فقد قرّر القفز على الزمن وعلى ملابسه الملقاة على طول غرفته, والقفز فوق عتبة الباب المكسورة والخروج إلى العمل... الخروج إلى إيليف.

قبل ساعة من الآن كانت إيليف تنتظر أيوب في مكان ما بالقرب من محطة الحافلات, لتواجه الحيرة التي اعتادتها كلّ صباح, فهي لا تعلم ما إذا كانا سيستقلان حافلة الساعة السابعة والنصف, أم أنّ أيوب سيتأخّر كعادته, ما يجبرهما على إيقاف إحدى سيارات الأجرة المنتشرة في شارع تونس الحيوي وسط المدينة. كانت إيليف تقف على الرصيف وهي ترتدي كنزة صوفية مقلمة, وتحمل حقيبة حمراء في يدها اليمنى, وفي يسراها تحمل مظلة مطر, فالسماء في ذلك الوقت لا يمكن التنبؤ بها, بالإضافة إلى أن نشرات الأحوال الجوية في التلفاز, وصفحات الأرصاد الجوية في الصحف اليومية, تتحدث عن منخفض جويّ بارد سيحمل ما تسنى له من مياه البحر المتوسط التي بخّرتها شمس الصيف على مهل, وربما كانت السحب المطيرة ستأتي من مكان أبعد خارج الحدود.

انتظرت إيليف حتى برد كوب القهوة الذي لم تكمله بعد, وهي تنظر إلى أوّل الطريق ثم تشيح بنظرها إلى آخره, ويصخّ سمعَها صوتٌ تعرفه ينادي باسمها, فلا يصلها إلا سباب سائقي سيارات الأجرة, ومنبّهات الحافلات التي تعلن عن قدومها للمحطة, ليتسنى للركاب حمل أغراضهم وإخراج بطاقات الصعود أو إخراج أموالهم قبل صعودهم للحافلة.

جلست قليلاً على النتوء البارز من سور المبنى المحاذي لمحطة الحافلات, وما إن مدت قدميها ورأت حذائيها اللذيْن اتّسخا بعد مرور درّاجة هوائية فوق تجمع صغير للمياه ملاصقًا لرصيف المشاة, الأمر الذي كدرها بعض الشيء وحملها على وضع حقيبتها أمام قدميها لتخفي حذائيها, حتى مرّت بها عجوز تتكئ على عصى خشبية وتحاول أن تجد مكانًا بين أجساد الفتيات والشبان الذين امتلأت بهم المحطة, ومن مقعدها الحجري راقبت إيليف العجوز وهي تروح وتجيء وكأنها تستعطف أحد الشبان أن يفسح لها فرجة لتضع جسدها العتيق, كانت تمشي ببطء وتنظر في وجوه الجلوس, وتعدل من شالها الملون المربوط بعناية فوق شعرها الأشيب, والذي يحاول بدوره أن يهرب من تحت الغطاء الملون ليظهر من الجوانب ويطل على الشارع ومرتاديه.

بعد أن يئست العجوز من أن يلتفت لها أحد الجلوس على كراسي المحطة, بحثت عن فرجة بين أحجار الرصيف الرمادية, وركزت عصاتها الخشبية ومن ثم وضعت أسفل ظهرها على نهاية العصا الكبيرة, وأراحت جسدها. في ذلك الوقت كانت إيليف تنظر إلى ساعتها اللامعة التي تصدر خيطًا من الضوء ينعكس على واجهة البناية أمامها, وينقطع بمرور أي حافلة تحجب ضوء الشمس, ليعود الضوء خاطفًا إلى مكانه على الجدار, كانت الساعة على يد إيليف البيضاء في ذلك الوقت تشير إلى السابعة و8 دقائق, وهو ما تشير له ساعة العجوز وبقية الساعات في محطة الوقوف.

انتظرت إيليف لثوانٍ ثم قامت عن كرسيّها الحجري, ووضعت مظلّتها بشكل عرضي فوقه, وتحركت بسرعة باتجاه المرأة الكبيرة المتّكئة على العصا, ونبهتها بأن وضعت يدها على كتفها الأيسر, وهمست في أذنها في الوقت ذاته, وبعد أن ابتسمت العجوز وابتسمت

إيليف, سارتا سويًا ببطء نحو النتوء الحجري, لتجلس المرأة الكبيرة بمساعدة إيليف التي قطعت الشارع فور جلوس العجوز نحو بائع القهوة المتنقل على الجانب الآخر للشارع.

في ذلك الوقت انقلب أيوب في سريره إلى جنبه الأيسر, حتى واجه نافذة غرفته التي تعلوها صورته, لقد شعر بثقل جسده وهو يتكئ على ظهره لينقلب على جنبه, ثم رأى ضوء الصباح يتسرب من خلف الستائر, وقتها لم يدرك ما إذا كان لا يزال في الحلم, إذ كان الضوء شاحبًا بعد أن قطع مشاوير إضافية بين طبقتي الستائر (طبقة الشيفون الشفافة والأخرى التي بلون الغرفة الأزرق) بالإضافة إلى الزجاج المثلج الذي لم يعد دارجًا هذه الأيام, ثم شعر بعد ذلك بوخز في أسفل ظهره, فتجاهله بعد أن استوى على جنبه, وهو يترقب أي وخز آخر سيعود ليضرب من جديد, ولمّا كانت الوضعية الجديدة مريحة, وبلا وخز.. عاد للنوم.

كانت الأصوات تجيء من كل مكان لتصبّ في رأسه, وكلما اقترب وقع أقدام جيرانه من الباب في طريقهم للنزول, نظر إلى ساعته التي كانت تشير على الدوام إلى الساعة السادسة وعشرة دقائق, تكرر ذلك 7 مرات بالرغم من وجوده في الطابق العاشر, ولا يعلوه إلا شقة صغيرة بنيت على السطح جنبًا إلى جنب مع أطباق التقاط القنوات, الشقة التي يسكنها ناطور البناية, وأبناؤه الستة, وحين انتهت الأصوات, وعاد لتفقّد الوخز الذي أصابه مؤخرًا ليجده ساكنًا, نظر إلى ساعته من جديد, ثم إلى النافذة التي تصدر في هذه الأثناء ضوءاً أكثر حدة, يتحوّل بعضه إلى ظلّ فور مروره فوق المزهرية التي وضعتها إيليف أمام النافذة, وتنطبع على الجدار كشجرة عتيقة يلجأ لها المسافرون والعشاق, فيطمئنّ أكثر لفكرة النوم, وينام من جديد.

لقد اعتاد أيوب على كل هذا, لكن ذلك كان يحدث بعد أن تبدأ جارته خيرية بتمارينها الصباحية, وهو ما يعني أن ساعتها الخضراء والكبيرة ذات الجرسين النحاسيين, وببغاءَها الأفريقي قد مارسا أيضًا واجبهما اليومي, إضافة إلى واجبات الببغاء الأخرى والتي تشمل تكرار إعلانات تلفزيونية, إحداها عن واقٍ ذكري الذي كان يتسبب لسكّان البناية رعشة

خجل تمرّ من وجناتهم لآخر ظهورهم, وبعد أن ينتهي من حصته التلفزيونية والتي تكون عادةً على نحو متتابع, ينزل من فوق قفصه مستندًا على منقاره الأسود, ويتناول وجبة سريعة قبل أن يعود مسرعًا إلى مكانه فوق القفص. لقد راقب أيوب ذلك في أيامه الأولى, حيث كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى بها طائرًا متحدّثًا بعيدًا عن التلفاز, والحقيقة أنها المرة الأولى التي يقترب فيها إلى هذا الحد من طائرٍ بذيء.

فلطالما سمع أيوب عن قصصٍ لببغاوات تردّد الشتائم, ونكات أخرى لببغاوات تسرد قصصًا جنسية, لكنه هذه المرة يقف بالقرب من أحدها, كما أنه في أسبوعه الأول هنا في شقته الملاصقة لشرفة جارته خيرية, سمع أصواتًا تصدر من الشرفة. كان خائفًا وقتها لأن الوقت متأخرٌ, ولأنه ما يزال جديدًا في هذا المنزل, حينها توجه إلى المطبخ الذي لم يكتمل في ذلك الحين, وحمل سكينًا كبيرة, وخرج باتجاه مصدر الصوت, مشى ببطء في أرجاء شقته, ولما عاد الصوت الذي بدا متغيرًا وناعمًا بعض الشيء, تحفّز من جديد ومشى ببطء شديد, فالأصوات في الخارج تشي بوجود اثنين يتبادلان حديثًا لا يفهمه أحد في ثلث الليل الأخير.

في تلك الليلة ظل أيوب واقفًا خلف الباب لثوانٍ, وحين اختفى الصوت, أزاح قطعة القماش التي وضعت على الباب كستارة مؤقّتة, ونظر من خلالها, وقتها لم يجد أحدًا في الخارج, ولم يُلقِ بالاً للطائر الذي يقف فوق قفص حديديّ على الشرفة المقابلة.

سيستيقظ لاحقًا ليدرك غرابة يومه الذي سيبدأ في غياب روتين حياته الصباحية, هو لا يعرف ذلك بعد, لأن الوعي الخفيف الذي يجول في ذهنه ما يزال ينتظر من فوق سريره مجيء كل هذه الأصوات, وفوق كل هذا كانت إيليف تنظر إلى ساعتها للمرة الأخيرة, وهي تشير بيدها الأخرى إلى سيارة أجرة, بعد أن فاتتها حافلة السابعة والنصف, والحقيقة أنها قد فاتتهما معًا, الرجل النائم في فراشه الذي تشير ساعته إلى وقت مغاير, والفتاة الجميلة التي قررت أن تستقل سيارة أجرة وأن لا تنتظر حافلة الثامنة.

تشهد محطة الحافلات في مثل هذا الوقت على ساعة «إيليف» العديد من الحيوات المختلفة, هناك عناقات عابرة لرجال يودّعون صديقاتهم أو زوجاتهم, ومصافحات لأناس التقوا في المحطة بمحض الصدفة, وأولئك القادمون من الأرياف إلى المدينة الكبيرة, تراهم بملابسهم الرثة وفي وجوههم أثر الأحلام الجديدة, وآخرون لا يعرفون سببًا مقنعًا لوجودهم في هذه المحطة, فهم إما أن يكونوا قد استقلوا الحافلة الخاطئة أو أنّهم هاربون من شيء لا يعرفونه؛ الوحيدون هم فقط من تتاح لهم فرصة الاقتراب ومراقبة كل هذه التفاصيل, الوحيدون والذين ينتظرون شيئًا ما, إيليف مثلاً.

في المحطة أصاب إيليف الخوف مرتين متتاليتين: المرة الأولى حين تأخّر أيوب على غير المعتاد, فبعد أن راقبت عشرات الرجال الذين مرّوا أمامها في شارع تونس, وتفحصت وجوه الذين أقبلوا من أعلى الشارع ذاته باتّجاه الجادة السادسة, وافتعلت بعض الفوضى لتجذب إليها وجوه الآخرين الذين كان ينزلون من الشارع متجهين إلى الجادة السادسة أيضًا, والذين حملوا ظلالهم معهم إلى مكان مجهول. وهزّها الخوف للمرة الثانية حين استوقفت سيارة أجرة في الساعة السابعة وخمسة وأربعين دقيقة, فتوقف الشارع وراءها واعتلتها ذروة الخوف حين نزل سائق التاكسي متجهًا إليها, قبل أن ينحني كمُصلٍّ خاشع ليتأكد من إطار سيارته الذي كانت تتسمر عنده.

تلك كانت ذريعة السائق, الذي دار حول السيارة بسرعة كبيرة فكان كلما اقترب من إطار ركله بحذائه الرياضيّ الملون, كانت الفتاة الجميلة التي تنتظر صديقها تراقب ما يقوم به السائق, بقيت تتأمّل حركته السريعة ولم تقم بأيّ تحرك إلى داخل السيارة, حتى اقترب منها ليتفحص الإطار الخلفي الأيسر, اقترب منها أكثر فتوقف تنفسها لأنها سمعت صوت أنفاسه المتسارعة, لم تقْوَ على الحركة حتى بعد أن تجاوزها باتجاه الإطار الأخير بجانبها. كانت تحاول أن تلمس ذراعيها لتفركها بعد قشعريرة سرت في جسدها, لكنها بقيت ساكنة بلا حراك حتى ركل السائق الإطار الأخير, فكان الصوت مدويًا أكثر من سابقيه, ذعرت إيليف الغائبة عن وعي المكان, والتفتت إلى مصدر الصوت, ليمر الرجل أمامها وهي في

منتصف الدوران إلى حيث صدَر الصوت, ويحتكّ في ذراعها ليرتجف جسدها ويرتجف معها قلب إيليف, الفتاة الخائفة مرتين.

وقفت إيليف لثوانٍ حتى هدأ نبضها المسموع من مكانها وسط أصوات السيارات ونداءات الباعة المتجولين حولها, ونظرت بعد ذلك إلى السائق الذي بدا وكأنّه يحمل شيئًا خاصًّا كانت ستعرفه بعد دقائق, كانت تشعر بأنّ في عينيه سرًّا يخصّها وفتنها لوهلة ذلك الطابع الغامض لهذا الرجل الغريب, رغم أنها ركبت في حياتها المئات من سيارات الأجرة والتقت بالمئات من سائقيها, فاطمأنّت قليلاً لردّة الفعل التي بدت على وجهه وتصرفاته, ولم يكن ذلك السبب الوحيد الذي جعلها تتعجل قرارها وتكمل مشوارها إلى العمل مع السائق ذاته, إذ دفعتها أصوات المتأخّرين عن العمل الذين يقفون في صف سيارات الأجرة, وسباب سائقي السيارات الأخرى الذين ينتظرون أجرة الصباح الأولى, إلى الركوب بسرعة في المقعد الخلفي.

جلستْ في مقعدها الخلفي تنظر من خلف النافذة إلى الرجال الذين توزّعوا على جانبي الطريق, لم يكن أيوب أيًّا من هؤلاء المتجهمين والعابسين وأنصاف النائمين, وهم يحملون أكواب القهوة والجرائد القديمة التي تحتوي على أرغفةٍ ساخنةٍ يتصاعد بخارها. وفي آخر النهارات الشتوية, ومن مقعدها الذي غطاه السائق بقماش أحمر خوفًا من اتّساخه بفعل أطفال الزبائن أو حيواناتهم الأليفة, رأت دمية بلوريّة شنقت على المرآة أمام السائق, لقد كان المنظر غريبًا لها, ما أعادها لدائرة الخوف من جديد.

لا يحدث كثيرًا أن ترى إيليف دمىً مصنوعة من البلور الملون على واجهات المحال في كل شوارع المدينة كما بدت في ذلك الصباح, البعض منها بدا مشنوقًا بطريقة مريعة, فيما بدا البعض الآخر موضوعًا بعناية خلف زجاج الفاترينات وأخرى مشنوقة على المرايا الأمامية لسيارات مرت بجوارها خاطفة في حين تصدر محركاتها في الخارج الكثير من الصخب, وتصدر الدمى في داخل السيارات الكثير من الفرقعات الناتجة عن تصادم البلورات المحاكة داخل خيوط رفيعة لا تكاد تُرى, كانت جميعها تلك المعلقة في واجهات المحال

وتلك التي عبرتها خاطفة على مرايا السيارات لها ألوان مميزة, تبعث في النفس مالا يمكن وصفه على وجه الدقة, لكن ذلك الشعور يكون قويًا يقود من يتملكه إلى أن يصرف نظره عنها برغم ألوانها الجميلة.

كانت إيليف طوال تلك الدقائق تنظر إلى ساعتها بشكل متواصل, وتفكّر في أيوب الذي لا بدّ أن يكون قد وصل الآن إلى محطّة الحافلات, وتحاول دون انقطاع ودون جدوى كذلك أن تصل إلى أيوب على الهاتف, لكن تفكيرها كان ينقطع وهي تلاحظ وجود البلورات في كل مكان, فقد انتشرت الدمى بشكل مريع وراحت تتكاثر على طول الشوارع التي عبرتها, إذ في كل مكان تتوقف به سيارة الأجرة, كان يطلّ من مكان ما أحد تلك الدمى, وفي حال اختفت عن الظهور لأي سبب كان, فهناك وهجٌ ينطبع على جدران المدينة, إذ كانت أشعة الشمس تخترق البلور المعلق في النوافذ لتصنع ألوانًا أخرى على الحوائط المقابلة لها, فيضيء المكان أكثر, حينذاك يعمد البعض إلى وضع نظاراتهم الداكنة ليتسنى لهم مشاهدتها بشكل مباشر دون أن تتأذّى أعينهم. وإيليف التي كانت منشغلة بغياب أيوب, وبرغم خوفها لم تتساءل عن السبب الذي لأجله تقافزت الدمى في وجهها عند كلّ ناصية بل راحت تحدق مندهشة وبلا توقف في الألوان التي تصدر عنها.

لم تكن إيليف وحدها المعجبة بهذه الألوان, أبناء جارتها كذلك خطفتهم الألوان وظلوا ليومين متتابعين يلعبون بدميتين من البلور عند العتبة, وحين تجاوزتهم أول مرة كانت جارتها جليلة قد علقت قطعة بلورية أخرى على مدخل الباب, لم تنتبه إيليف في المرة الأولى, إذ كانت قطعةً بلورية زرقاء, تشبه إلى حد كبير العين الزرقاء التي اعتاد الأتراك على وضعها في كل مكان, هناك أيضًا كل سكان البناية, والبنايات المجاورة, وهناك في محطة الحافلات كان العشرات يحملون قطعًا أخرى ملونة, وأخيرًا هناك سائق سيارة الأجرة التي تُقلّها الآن إلى عملها.

حين انطلقت السيارة كانت قطعة البلور تتأرجح أمام نظر إيليف, التي رأت العشرات من قطع البلور المنتشرة في كلّ مكان ولم تسأل عن سبب وجودها, لكن الانتظار الذي تخلقه

شوارع أنقرة المزدحمة, وهربها من شيء ما تخفيه عن نفسها دعاها لسؤال السائق عن ما تعنيه تلك البلوريات المنتشرة, وربما أنها أرادت أن تسأله عن ما تعنيه تلك التي يعلقها على المرآة أمام عينيه.

السائق الذي لا يعلم ما الذي يمكن أن يعنيه وجود هذه القطع في كل مكان, أخبرها بأنه يجلس بصحبة القرويين والوافدين الجدد في المقاهي بين أقداح القهوة وأصوات النرجيلة يناقشون باقتضاب سبب وجودها, وحين لا يجدون ما يشبع جوع الأسئلة يتجاهلون السؤال وينشغلون بالحديث عن المطر الذي نزل مؤخّرًا, وترتفع عقيرة ضحكهم حين يدخل الباعة المتجولون يحملون بين أصابعهم أنواعًا رديئة ومقلّدة لدمى البلور, كلهم وعلى الرغم من حداثة عهدهم بالمدينة وبطرق التزييف يعرفون أن هذه الدمى التي يحملها الباعة ليست سوى بلاستيك مقوى, يظهر وكأنه زجاج حقيقي, وحين يمر البائع تحت مصدر الضوء المعلق في السقف والمتجه مباشرة إلى أعينهم تتأكد لهم ظنونهم في أن الدمى ليست سوى كتل بلاستيكية, يفضحها انعكاس الضوء الباهت على الجدار والذي يُظهر انعكاسات رديئة بخلاف بريق الدمى الحقيقية.

بدأت حماسة السائق تظهر في حديثه, كان يشير إلى مكان البلور وهو يتحرك ببطء حينًا وبسرعة حينًا آخر بين صفوف السيارات, وفي مرتين متتاليتين أمسك بقطعة البلور التي كانت لدمية تشبه رجلاً مشنوقًا إلى السماء ولا يرى حبلها, وإذا ما كان السائق قد أسهب في الحديث عن الدمية ثم عرج على حياته وذكر على عجل ما يلاقيه في يومه الطويل على كرسيه في سيارة الأجرة, وانتقد الضرائب ورجال الشرطة, وبصق ثلاث مرات على تمثال أتاتورك, ووقف على إشارتي مرور, وبعد ذلك عاد من جديد وتحدث عن البلور الذي اشترته زوجته, فإن إيليف التي استمعت إلى بداية حديثه, استسلمت لرسائل القلق في نهاية الأمر واتّصلت بهاتف أيوب الذي لا يجيب.

لا أحد يعرف حقيقة الشتاء في أنقره, ولا حتى السادة في مكاتب الأرصاد, ولا جدّة أيوب التي لطالما تنبأت له بالليالي الماطرة, وحذرته من الخروج في أيام العواصف, وإن كانت

جدته تصيب في أحايين كثيرة, إلا أنّها قد تخطئ كثيرًا أيضًا. الشتاء بالنسبة لأيوب كان دائمًا ضربة حظ, تزوره الحمى بعد أن تنقضي الأيام الباردة, تمطر حين يخرج من غير مظلة, تغسله السيارات العابرة بالماء المتّسخ على جوانب الطريق حين يكون للتو قد انتهى من حمامه, وتخشخش الريح في جنبات الشجر حين يكون في أشدّ حالاته حاجة للنوم؛ وفي نجمه الطالع, يلتقي بفتاته فيشعر أنّ كلّ شيء من حوله قد توقف, ثم لمّا يباشر في المضي كان كمن يمشي على القطن, ولأنّه لا يعرف وليس متأكدًا من نوايا الشتاء بقي نائمًا ليلة الشتاء الأخيرة, أو في صباح الربيع الأول, في حين كانت إيليف تسمع من بعيد صوت سائق الأجرة وهو يحكي حكاية البلور, وقلبها يصغي لصوت البرد القادم من شتاء أيوب الذي لم ولن ينتهيَ بعد.

ما عدا الشتاء الأخير, وانتظار إيليف, وظهور البلورات, ونوم أيوب حتى هذه اللحظة, وآخرين ربما كانت شتاءاتهم بطول شتاء أيوب, ما عدا ذلك كان سائق سيارة الأجرة يواصل حديثه بلا توقف, لكنّه أحس في تلك اللحظة بأن شيئًا ما يحصل في المقعد الخلفي, حيث تجلس إيليف متّكئة على النافذة, تضع وجنتها على الزجاج البارد وتنظر إلى الخارج في هدوء الشتاء, تنظر للناس وللممرات الباردة والقذرة, كان الخوف في تلك اللحظة قد ملأ قلب إيليف فتحولت لكتلة ثلج أخيرة خلّفها الشتاء ورحل, في ذلك الوقت كان البرد قد تجاوز إيليف ليلامس ظهر السائق الذي أصابته قشعريرة استمرت طويلاً, تحوّلت بعد ذلك إلى ارتعاشة شتاء جاءت في غير وقتها, وشيئًا فشيئًا صارت ارتعاشات متكرّرة حل محلها خوف بثّته إيليف في المسافة الضيقة بين مقعديهما.

وإذا ما كان السائق قد شعر بالبرد والخوف في آن واحد, فإنّه لوهلة ظن بأنّ هذا البرد لم يكن سوى موجة هواء عبرت النافذة الخلفية, فمدّ يده ببطء إلى لوحة التحكم وأقفل جميع النوافذ على مضض, لكن بردًا آخر كان يواصل حضوره من مقعد الفتاة التي لا تزال تنظر من خلف الزجاج, وهي تبتسم لشيء ما, كانت تجلس بالطريقة ذاتها التي جلستها في ليلة شتاء أخرى في شارع تونلي حلمي, وهي ترتشف كوب القهوة, وتتصنّع أنّها لا ترى الشاب «أيوب», الذي كان يقف في منتصف الحشود يراقبها. كان المكان قد تحول لغرفة

باردة ومغلقة, وهو ما زاد من قلق السائق الذي قرر أن ينظر للخلف في تلك اللحظة, اللحظة ذاتها التي كانت فيها شاحنة نقل إحدى كبرى شركات الأغذية تعبر الطريق ذاته, والتي ستنحرف عنها سيارة الأجرة, وتصطدم بها, فيما سائق الأجرة يبحث عن مصدر البرد المفاجئ.

في ذلك الوقت انتبه أيوب إلى ساعته التي تشير إلى السابعة وثلاثة وعشرين دقيقة, لذلك قام مسرعًا فتعثّر بشرشف سريره المقلّم بالأزرق, وسقط من علوّ على يديه اللتين ركزهما بسرعة على ذات الأرض, وأسرع إلى الحمام, وفور وصوله نظر إلى وجهه على المرآة المكسورة والتي قسمت وجهه إلى نصفين, ليدرك بأنّ هذا النهار لن يبدو طبيعيًا من الآن وإلى الأبد, وأحسّ بالخوف, خوف الهواء وهو يغادر, خوف الستائر وهي ترتجف, والخوف في عيني إيليف المتّسعتين, الخوف الذي سكنهما قبل أن تُغمَضا إلى الأبد.

الفصل الثاني

أحيانًا يتوقف الزمن, يحدث ذلك في لحظات السعادة وما إن ينتبه المرء إلى ذلك, حتى تعود الساعات في كل مكان للعمل بسرعة أكبر, ويمكن قياس حيواتنا هكذا. وأحيانًا يتوقف الزمن أيضًا, في لحظات البؤس, وما إن ينتبه المرء, يدرك حقيقةَ أن الوقت لا يتحرك, وبأن كائن الوقت الذي تمثّله العقارب يتربّع بكامل ثقله على صدره, ويلفّ قدميه على خاصرته, ويجلس طويلاً.

ذلك ما أحس به «رجب» سائق الشاحنة, شيئًا من قلق السعادة التي لا يعرف مصدرًا واحدًا لها, فهو قبل دقائق كلّم زوجته من هاتفه المحمول, والتي أخبرته بأنّها تعدّ نفسها منذ ساعتين لتكون أمًّا, ومابين فرح فحولته التي تأخرت حتى ظهرت في صورتها الأخيرة, والحزن الذي سيأتي فيما بعد, تذكر حين أخبرته زوجته «شيدام» بأنّها في الشهر الثاني من الحمل، وكيف استطاع الحزن أن يسطو على تلك اللحظة، الحزن الذي سيكون مصدره المال, وضيق الحال, الحزن الذي سيكون ضيفه الثاني بعد ولادة الطفل في منزله الصغير, الذي لا يتّسع له ولزوجته شيدام, الحزن الذي سيقضي على مدّخراته الضئيلة من عمله المستمر في السنوات الأربع الماضية.

هذا ما سيبدو بعد انتهاء المهلة الطويلة, وسيصبح مطاردًا بالوقت أكثر من ذي قبل, ومطاردًا من رجال الهجرة الذين يأتون أحيانًا بزيهم الأنيق, قبل أن يختفوا دون موعد, وهو يردّد بصوته الهادئ الذي يأتي من طبعه الهادئ: جئتُ من من سوريا، من أي مكان أو كل مكان، لا فرق، جئتُ مع عرق عاملي مصانع الأسمنت, المنتشرة على طول خطوط الإسفلت الصفراء المتشعّبة من كل المدن القريبة, ولما كانت الطرق أكثر وعورة جئت مع عرق المتسللين عبر الحدود الدولية, ثم عبرت الجبال الشاحبة, جئت مغافلاً سيارات دائرة الهجرة وأفراد الشرطة, وبعد أن أعادتني السُّلطات, جئتُ مرة أخرى على هيئة قطرة عرق عفنة في جبين رجل عفن إلى الوطن الأسود, ثم عدتُ مع عرق المتسللين الجدد, قطرة

عرق أخرى عبر حدود أخرى, ثم جبال أكثر شحوبًا, ورجال هجرة أشدّ صرامة, وجنودٍ أكثر نتانة, حتى صرت قطرة عرق كبيرة في صورة رجل ذي رقبة مكتنزة وعينين جاحظتين ومشية متسارعة.

يقول في نفسه ليس الوقت مناسبًا للركض من جديد, هذه المرة سأركض وأنا أحمل رضيعًا بين يدي, وربما سيكون الجوّ ماطرًا حينها, سيكون الهرب أصعب. وقتها يتوقف الزمن, تلك الوقفة التي تتعلق بالبؤس, وتصبح الأشياء حوله بطيئة لدرجة أن رجال دائرة الهجرة يقتربون منه, فهم لا يزالون يعدون خلفه بالسرعة الحقيقية, وحين يتذكر فحولته التي ظهرت متأخرةً, وبأنّه وجد المرأة المناسبة له, تنفرط تروس الساعة الكبرى, ويركض بسرعة أكبر, ويبتعد, ويبتعد.

يقول وقتها: ربما أتوه وسط الجموع في المدينة التي لا تنام, هناك الآلاف مثلي؛ قبل أن تعود صورة طفله الصغير الذي بدا له فيه عمر السنتين, بدينًا ويخطو مفرشخًا ما بين قدميه, فيعود إليه مشهد الركض في الجوّ الماطر, ولأن الطفل أصبح ثقيلاً ولا يستطيع الركض بسرعة, خُيّل إليه أنه سيحمله ويهرب, ما يجعل هربه بطيئًا, إضافة إلى توقف الساعة البائسة والرجال بياقاتهم النظيفة يتسارعون في الركض وراءه, ولا محالة ستمسك به دائرة الهجرة وينتهي الحلم الذي بدأ للتو.

تمسّك رجب بخيار الركض, وكان على وشك أن يلامس الشريط الأفقيّ في نهاية مضمار السباق, تمسك بهذا الخيار مع إدراكه التّام بأنّه ما من سباق في ذلك الوقت, إلا سباقه مع ترتيب الأفكار في رأسه, ومحاولة إجراء حوار أخير مع الشخص الأول الذي سيظهر أمامه, والذي لم يكن سوى سائق التاكسي.

لقد توقّف الوقت آنذاك, ولم يدرك وقتها هل توقف الوقت لأن تلك اللحظة يمكن أن تكون إحدى لحظات السّعادة التي يتوقف عندها الزمن, أم إنّ الوقت توقف لأن هناك شيئًا ما يجب أن يفعله أخيرًا, إذًا فقد توقفت ساعته اليدويه, وساعة السيارة, وماتت الديكة في

قريته البعيدة, وبقي رجب يحدّق في وجه سائق التاكسي, من أجل حوارٍ أخير مع الرجل الذي أرسله القدر في سيارة تاكسي جديدة.

وكما يعلم رجب فإن الساعات التي توقفت لسبب مجهول آنذاك ستبدأ في الدوران بسرعة أكبر لتعوض ما فاتها, لكنّ سائق التاكسي لم يبدِ ردّة فعل مشّجعة لبدء حوار رجب الأخير, وحين تأكد رجب من عدم جدوى تلك الابتسامات المتفرقة وتلويحات يده المتكرّرة, قرّر أن يبحث عن شخص آخر مستعدٍّ لحواره الأخير, وهو ما لم يحدث, إذ ولسبب مجهول كانت الشوارع فارغة, والنوافذ موصدة, ما اضطره للركض من جديد ليجري تلك المحادثة الأخيرة.

يقول رجب: رأيت نافذتين مفتوحتين فقط, خلال ركضي السّريع في الشوارع الخلفية, نافذتين فقط في الوقت الذي يجب أن تكون أكثر من ذلك بكثير. كان يجب أن يكون هناك نوافذ يجلس بها أطفال, ونوافذ تُطلُّ على مطابخ بعضها فارغ, والبعض الآخر يكشف لنا عن نساء بدينات يعملن دون كلل في جلي الأطباق, نوافذ لرجال يضربون زوجاتهم, وأخرى لحمامات يظهر من وراء زجاجها الشفاف فتيات يافعات, ونوافذ لغرف طعام, وأخرى لغرف خدم يمارسون طقوس غريبة ولا أحد يلتفت لهم, كان يجب على الجميع فتح نوافذه المطلّة, والغير مطلة, فالمنازل اللّصيقة لمنزلي تشعر برائحة الخمج كما أشعر به يصدر من الزوايا, ومن تحت سرائر النوم, كان لزامًا عليهم فتح الأبواب الموصدة, والقبب, والمكيّفات الصحراوية, كان يتعين على الأزواج الجدد فتح نوافذ غرف نومهم الوردية, وعلى المراهقين ممارسة عاداتهم السرية على مرأى من المشاة, وعلى المسافرين ترك أبوابهم مفتوحة للصوص ولمن يبحثون عن مكان آمن للنوم, كان يجب فتح نوافذ المجالس, والأبواب الخارجية للمنازل الكبيرة, والمنازل الصغيرة كذلك, كان يجب أن يكون هناك ثقب كبير في صدري حتى يمرَّ الهواء خلالي.

قبل ذلك بدقائق, كانت ساعة رجب تتوقف طوال الدقائق الأخيرة في حياته, مابين لحظات السّعادة والبؤس, حتى وهو يعبر الشوارع باتجاه الموت الذي سيأخذه دون موعدٍ

مسبق, وسيأخذ سائق سيارة الأجرة والفتاة في المقعد الأخير التي لها رائحة زهرة غارديني. الوقت ذاته الذي شعر فيه بالبرد, الذي لم ولن يدرك وجهته, دون أن يفتح نافذة الشاحنة المطلّة على شارع « تونلي حلمي», شعر بالبرد وهو يقف بمواجهته مبتعدًا عن النافذة ومنجذبًا إلى داخل كابينة القيادة, أغمض عينيه لبرهة, لبرهة واحدة فقط, لم يعرف بعدها إن كان قد خرج من النافذة وراء روائح الطعام المنبعثة من المطاعم المنتشرة في كل مكان, البرهة التي لم تكفه ليعرف ما الذي سيأتي, ما الجديد, وما الذي قد لا يتكرر حين تعود ساعته الحقيقية للعمل.

حين يشعر «رجب» بأنه طريدة الوقت ينزوي إلى نفسه, وينكمش على ذاته, وكلما سمع تكتكة ساعة يده الرخيصة ذات الصوت العالي تحقّق من سيف الوقت المرفوع على رقبته, الصوت الذي كان يسمعه بالرغم من هدير محرك الشاحنة, وصوت أجهزة التبريد الملحقة بالشاحنة, وتلك التي تأتي من النافذة المفتوحة على شوارع أنقرة الصاخبة.

لم يتّسم ذلك النّهار بأيّ غرابة, فبطنه المنقبضة كانت منقبضة على الدوام منذ اصطاده موظفو الحدود عند أول عبور, وبشكل مفاجئ تذكّر وقتها أنّه شعر بجسده منجذبًا إلى الهاوية منذ الصباح, وبأنّه كاد يسقط مرتين في كل مرة فتح فيها باب كابينة القيادة, كما أنّه ظلّ يميل نحو النافذة كلما استيقظت تيارات الهواء التي تتدفّق من الخارج من كلتا النافذتين قبل أن يغلق إحداهما, وكأنّه يعدّ نفسه على امتداد الوقت والساعات ليتحدى الوقت والساعات وقوانين الجاذبية.

وحين جاء صوت الاصطدام وعادت الساعات للعمل من جديد, وتدفق المئات إلى شارع تونلي حلمي في وسط المدينة, كان الوقت متأخّرًا جدًا ليدرك رجب ما إذا كان الزمن قد توقف بسبب سعادة اللحظة, أم أن هناك سببًا آخر لن يكتشفه أبدًا!

الفصل الثالث

إنّه اللون الرمادي الذي نشرته شمس الأول من آذار, حين قرّرتْ أن تعود لتتعامد مع الأرض بعد أن استلقت في سرير السماء الأفقي طوال الشتاء, إنّه لون المواعيد الحزينة التي سيقيمها أيوب وحيدًا, إنّه لون الجهل والظلام الذي يحدّق به منذ استيقظ في الصباح, ومنذ شعر بأول خيوط الهواء الممزوجة برائحة الفقد, الهواء الذي تحوّل إلى اللّون الرمادي مع مرور الوقت, والذي سيبلغ رأسه بعد حين ومن ثم سيتحوّل إلى رائحة, ثم سيتسامى مع ذاته ليدخل إلى أنفه, أوداجه, عينيه بعد أن يمرّ بجيوبه الأنفيه ويملأ أفقه الصغير بغيمة رمادية لا تمطر بالإضافة إلى الهواء الرمادي الذي لم يدرك مصدره حتى هذه اللحظة.

كان الليل يهبط بمرور الوقت, حتى وإن كانت الشمس قد ظهرت للتو, وكلما هبط المطر, كان الهواء الرمادي يهبط داخله, والأرض من حوله تهوي به, وقطرات عرقه يشعر بكامل تكوّرها على ظهره وهي تنزل للأسفل يتعلق بعضها على آخر ظهره حيث خبأت إيليف يديها كثيرًا بينه وبين الأريكة, وتنزل أخريات على فخذيه ومن ثم على ساقيه قبل أن تسقط على الأرض فيسمع دويّاً آخر لا يشبه ما يحدث في صدره.

لم تكن الفرصة مواتية لأن يحاول معرفة كل ما يحدث, لقد أحسّ وقتها بأن جسده قد بدأ في التغير, وبأن الهواء الرمادي تحوّل إلى بقعة سوداء وقد بدأت بالفعل تغزو جسده, وتجذب معها كل شيء إلى الأسفل, نعم لقد أحسّ بذلك, واستطاع أن يدرك بأن ما يحدث الآن في جسده ليس من تبعات ليلة البارحة, وبأن تهاوي الأشياء حوله كان قد بدأ منذ أن تعثر بشرشف سريره المقلّم بالأزرق, وسقط هو بنفسه من علوّ على يديه اللتين ركزهما بسرعة على الأرض, قبل أن يسرع إلى الحمام, ويكتشف بعدها كمّ الأشياء التي توالت في السقوط.

هل هذا كل شيء بالنسبة لأيوب في صباحه الرمادي الداكن, الأشهب الداكن, الأسود الداكن, ليس هذا فحسب وربما لم يكن ذلك الصباح هو الصباح المناسب لأن يعرف أيوب هرمون الأدرينالين عن قرب, إذ أنّه ومنذ نَفَسه الأول هذا الصباح قبل أن تبدأ الأشياء في

التهاوي أمامه كان هناك شيء وحيد يصعد ويتعاظم في كل ما حوله؛ شيء يشعره بأن جسده قد تحوّل إلى مضخة دم تدفعه باتجاه واحد, إلى القلب فقط, فيشعر بأن شراييينه قد تضاعف حجمها, بأن عضلاته قد تحولت إلى عبيد لهذه الانقباضة, أيوب لم يكن يعرف ما الذي يعتريه آنذاك, لكنّه قاوم جسده من أجل اللّحاق بركب الوقت؛ مفكّرًا في ذلك الشيء الذي لم يستطع وصفه في بادئ الأمر, هل كان ما أحسّ به بالفعل هو توسّع في الأوعية الدموية المزروعة في كلّ مكان تحت جلده ومن ثمّ إلى عضلاته وذلك لإتاحة الفرصة لتوصيل الدم الكافي لها وبالتالي تزويد العضلات بالأوكسجين, هل هو الأدرينالين الذي كان يُشعره بضربة الدمّ في صدغيه عند كل نبضة, وذلك التّسارع في دقات قلبه التي لم تهدأ طوال ذلك النهار؟

إنه الأدرينالين يا أيوب, هذا ما أرادا دمه وعقله على حد سواء أن يصرخا به في أذن أيوب, إنه الأدرينالين يا أيوب, وصوت القدر الخفي الذي كان متعاطفًا ذلك النهار معه أيضًا كان يصرخ بصوت أعلى ليخبره عن الهواء الرمادي, عن السيارات, عن الوقت, لكن أيوب لم يسمع شيئًا من هذا, وقد يكون ذلك بسبب ماكينة الحلاقة التي دأبت على السقوط في كل صباح من فوق رف أدوات حلاقة أيوب, وفي النهار الأخير قبل هذا كانت قد سقطت فتحطمت بعض أجزائها الداخلية, وأصبحت تصدر صوتًا عاليًا.. وعاليًا جدًا يستحيل معه سماع أي شيء في الجوار.

ومع كل هذا واصل الهواء الرمادي هبوطه, لقد بلغه أخيرًا, دخل أوداجه ومرّ بعينيه, وحين كانت الرؤية معتمة أكثر من لونه, تقهقر وعاد إلى أوداجه, وحمل نفسه إلى صدغه, ومر بيديه وصدره فأظلم وجهه أكثر, الأمر الذي لاحظه بواب المبنى على الفور, الذي ارتعب من منظر أيوب وهو يعبر بقدميه الثقيلتين عتبة المبنى.

لقد نزل مسرعًا فوق درجات السلم اللامنتظمة, وقفز الأربعة الأخيرة منها فأصدرت قدماه وقعًا لا يليق بهذه الساعة المبكرة من الصباح, ولا في كل الصباحات, وحين استقام جسده بعد انحناءة القفزة الأخيرة, نظر في المكان فلم يجد أحدًا, وتوقف دون حراك ليسمع

أصوات الأقدام الأخرى التي اعتاد سماعها في مثل هذا الوقت, فلم يسمع إلا صوت الفكرة الغامضة المرعبة في رأسه, وأصوات عقارب ساعته الرخيصة الصنع والتي تصدر صوتًا لا يشبه شيئًا إلا صوت خوف أيوب وتوجّسه.

كان أيوب يهمُّ بالتحرك واللحاق بإيليف في تلك اللحظة, وكان قد شدّ أكمام معطفه الجلدي إلى الأسفل وحرّك جيبه في حركة دائرية حتى عادت ياقة قميصه إلى مكانها الطبيعي, وحين هدأت حركته وهمّ برفع قدمه اليسرى باتّجاه الشجرة الشامخة أمام البناية والتي يقف عندها كل صباح ليحيي أطفال الحي وأمهاتهم اللواتي لا يزلن في ملابس النوم الدافئة, سمع صوت العقارب من جديد, تك.. تك.. تك, فبدأ بالركض بعد أن سمع التكة الثالثة. لقد كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها أيوب صوت العقارب في النهار, وكانت المرة الأولى التي يسمعها بعيدًا عن سريره حين ينسحب إلى فراشه كزنبرك قديم لساعة أقدم. لقد كانت المرة الأولى لكل شيء بعد ذلك, وتذكّر بعد أن وصل إلى الشجرة فلم يجد أحدًا هناك, بأنها المرة الأولى التي يقفز الدرجات الأربعة الأخيرة, وهي المرة الأولى التي لا يلقي التحية على الأطفال وعلى نهد أم كمال التي دأبت على إيصال ولدها إلى هذه النقطة كما دأبت على لبس قميصها الشفاف تحت ملابسها الشتوية التي دأبت هي الأخرى على تركها مفتوحة كلما مرت بجانب أيوب حتى وإن كان ذلك في كانون الثاني.

ما الذي يحدث؟

حدّث أيوب نفسه وهو يقف إلى جانب الشجرة.. وتوقف لينظر من جديد فيما حوله, كان المكان مليئًا بمخلفات الذين سبقوه إلى هنا, أوراق, أعقاب سجائر, وبأصوات الأطفال التي سمع صداها آنذاك والتي يبدو كأنها سقطت للتوّ من الأشجار أو خرجت من بين حشائش الربيع اليانعة, الربيع الذي تقرّر مجيئه بعد منتصف ليل البارحة. فأدرك وقتها بأن شيئًا ما قد فاته, لكنّه لم يلقِ بالاً وقرّر أن يبدأ من جديد.

يحتاج أيوب في هذه اللحظة أن يبدأ من جديد ويتناسى صباحه العاثر والفارغ من كل شيء, وأن يقنع الطفل الصغير الذي استيقظ متأخرًا في رأسه, وهو على وشك أن يبدأ في نوبة بكاء شديدة, الطفل الذي استيقظ في مكان يعرفه جيّدًا لكن لا أحداً هناك, وحين بحث في الأماكن التي اعتاد أن يزورها فور استيقاظه لم تكن أمه تنتظره بكوب الحليب, ولم يكن أبوه يصرخ بصوت عالٍ يستحثه أن يلحق بالمدرسة قبل أن يتأخر, يحتاج أيوب أكثر من ذلك, كأن يستجمع قواه التي ذهبت بعيدًا, وأن يبدأ بالتحرك, فهو على الرغم من بساطة الأشياء التي رآها منذ استيقاظه, كان يحسّ بأن هناك أشياء كثيرة تنتظره في كل مكان سيذهب له الآن.

إلى أين سيذهب؟

بعد أن توقف عند الشجرة, وحتى استجمع فلول قوته التي تناثرت, كان الوقت قد مرّ أكثر وأكثر فهو يحتاج أن يفهم ما حدث حتى تبدو حركته منطقية ولئلا يشعر أنه مطاردٌ بالوقت ومحاصر بالتفاصيل اليومية التي فاتته منذ بدء اليوم, يحتاج كذلك أن يصف الألم الذي لحق بساقيه من ركض هذا الصباح, وبحيادية دون أن يكون سوداويًا, ولا متفائلاً, من غير أن يبدأ وصفه بـ «كأن الموت تمكّن من عبوري»؛ حتى وإن كان ذلك الوصف دقيقًا لما يشعر به, يحتاج أيضًا أن يصف الذين اعتاد أن ينظر إليهم من الدور الثالث باستثناء جارته خيرية وببغائها, وأولئك الذين يمرّ على طوابقهم سريعًا باتجاه الأرض فيأخذون منه 6 أو 7 ثوانٍ معلّقين من غيابهم إليه, قبل أن يصل الدرجات الأربعة الأخيرة, والتي قفزها دفعة واحدة.

في الحقيقة كان يشغله كثيرًا تفسير ما يحدث له الآن, وما حدث له في الساعة الأخيرة, لكن الوقت ليس مناسبًا, لا يمكننا النظر في اتّجاهين مختلفين بينما هناك فتاة جميلة تنتظر في مكان ما, على الرغم من حاجته لترتيب أطرافه والسّيطرة عليها ليكون وصوله سريعًا, دون خشية أن تبلله الفكرة الماطرة فوق رأسه, وصورة إيليف التي تتحول مع تأخّر الوقت إلى غيمة تبتعد شيئًا فشيئًا فتستحيل الصورة إلى شيء غائم لا يذكّره بنشرات

الأخبار الجوية, والرؤية الغائمة جزئيًا وكليًا, إذ يتأكد مع مرور الوقت بأنه غير قادر إلاّ على التفكير بالألم والسواد الذي سيملأ الصورة جزيئًا ومن ثم كليًا.

كم من الوقت لزم أيوب حتى أصدر أول أوامره إلى عقله, ومن ثم تحويل الصورة التي لم تكن كاملة أمامه إلى هيئتها, ثم إلى إشارات عصبية قبل أن يرسلها إلى العضلات ومن ثم إلى مفاصله تحديداً, ربّما لأن عليها أن تتحمّل همّ الأعضاء الأخرى ومزاجيتها وتشنجاتها, وهي تواصل التواءاتها وانزلاقات غضاريفها وتقشير الهواء من حولها, كم من الوقت يلزمه دون أن يدرك حتى هذه اللحظة بأن ساعته لا تشبه بقية الساعات التي تحملها السواعد, المدراس, المساجد, الكنائس, وذراع إيليف الأبيض الرقيق والذي يختصر مسافة الشوق التي بدأ يشعر بها منذ الآن, فيزداد ألمه أكثر إذ يتضافر شوقه بوخز ألم ساقه اليمنى, ويسقط في فخّ الوجع بلا خيارات تمكّنه من اختيار الألم الأخف فيما لو أجبره الله على الاختيار, فهو لا يريد أن يقيّدَ بزمن يتحرّك بين ألمين, الألم الذي يحتاج إليه لاختزال مئات الوجوه والأشياء التي اعتاد أن يراها طوال حياته قبل أن يجد إيليف التي اختزلت بدورها حياته وتفاصيل الصباح, واستأثرت ضحكتها ببقية الأشياء الفاتنة, وألم الساق الذي أصبح فظيعًا في تلك اللحظة ودون سابق إنذار.

قد تكون هي تلك اللحظة التي ستتضخّم كلما اقترب الوقت أكثر, تتعاظم على نحو سيجعله يفقد التركيز الذي يختزل الوجوه والأصوات ويختزل الحياة نفسها لينشغل في الاستعداد لمواجهة الوقت, وستكون لحظة تحفل بالعقارب والأرقام المضيئة والوامضة, وبآلاف الساعات الرنانة التي تأخرت عن الرنين في ساعات الصباح الأولى, وهذه هي المرة الأولى في ذلك الصباح الربيعي التي تأكّد فيها أيوب بأنّه أصبح مطاردًا بالوقت.

لم يكن أيوب آنذاك قد تأكّد من أن الوقت يقف في وجهه, لذلك فقد اعتبر أن كلّ ما يحصل هو مجرّد نزوة لكائن الوقت فقرّر أن يحتملها على مضض, وينهي ما تبقّى من يومه الطويل جدًا حتى الآن, وتحمّل ما ظنّه ألمًا في ساقه ومشى باتجاه شارع تونس الممتد حتى محطة الحافلات حيث تنتظره إيليف, وينتظره بعض الذين اعتاد على رؤيتهم بشكل

متكرر منذ أن استأجر منزله الحالي, واعتاد أن يشعل السجائر لبعضهم ويمسك حقائب آخرين بينما ينحنون لربط أحذيتهم, لذا فإن صباحات أيوب لطالما كانت صباحات مليئة بالحركة والحكايات الصغيرة, ولم تكن قط في يوم كئيبة إلى هذا الحد منذ التقت عيناه بإيليف.

منذ أيام كان قد اعتاد أيوب وغيره من المشاة في شارع تونس أن ينزلوا بسرعة بسبب طبيعة الشارع المنحدرة بشكل طفيف باتجاه محطة الحافلات, دون أي انحناءات في السير, كما اعتاد أن يسير بين أجساد كبار السن الذين يتحركون ببطء متكئين على عِصيّهم, وبين أولئك الذين يديرون أعمالهم بأنفسهم وما من أحد يحاسبهم على تأخرهم, لذلك فهو دائمًا ما ينحني بجسده ليتجاوز أحدهم, ويصل بشكل أسرع إلى المحطة من أجل اللّحاق بالحافلة التي سوف تقلّه إلى عمله.

لكن ما حدث ذلك اليوم كان غريبًا بالنسبة لأيوب, في البدء كان الشارع فارغًا, وكانت المحلات والأكشاك الصغيرة قد أخذت أماكنها, فيما قد باع الباعة المتنقلون كلّ أقراص السميد التي يحملونها في مثل هذا الوقت من كل صباح, ولم يكن هناك عجائز يتخطاهم أو يساعدهم في حمل حاجياتهم باتجاه المحطة أو أي مكان آخر قبلها, لم يكن هناك إلا الرعب الجديد الذي عاد ليحيط به, الرعب الذي أحس به فور استيقاظه من النوم.

منذ أيام كان الطريق يمتد ولا ينتهي, والحياة تقف على أصابعها تطلّ على أيوب وعلى العابرين بسرعة رياح الشتاء الشماليّة التي تحمل معها درجات الحرارة المنخفضة من أعلى الجبال لتسقطها على سكان المدينة, وعلى العشاق الذين اعتادوا كل صباح أن يلتقوا علانية في أزقّة أنقرة, أحيانًا تحت المطر, أحيانًا تحت الثلج, وأحيانًا تحت السماء العارية الباردة, وفي كل مرة كانت تقترب الأجساد إلى بعضها البعض لتصنع ذلك الدفء الحميمي, وإذا ما كانت السماء كريمة حشرت الأجساد تحت المظلات ذات الألوان الداكنة, وحين تصادفهم تجمعات مياه المطر فإنّهم يقفزونها سويًا وحين يحطّون على الأرض تتصاعد

قطرات الماء لتلطّخ الأرصفة الموحلة, فيما تجمعهم الأحاديث القصيرة إذ تنحني الأجساد كطيور الغابات المطيرة.

منذ أيام ولكن ليس الآن, فكل ما سبق ورآه أيوب في الطريق إلى محطة الحافلات لم يكن يحدث آنذاك, أو ربّما أنّه حدث ولم يتبق منه إلا نهاياته, ولا عجب إن كان الطريق قد تراجع للوراء وكأنه يساعد أيوب ليلحق بالزمن, فلربما أنّها كانت المرة الأولى التي يحس فيها بالتعب وبأن الطريق طويلٌ جدًا, ويكاد لا ينتهي حين يجب أن ينتهي عند قدمي إيليف في المحطة, والتأخر وإن طال الطريق ليس إلا غيابًا لا يمكن معه تفادي قوّة الحضور, فإذا ما غاب عن ذاته, تحت غيمة داكنة أو في ظل أبنية شارع تونس اختفى عن الزمن الذي يحيط به, وبلا مقدمات تنتشر حوله أخيلته التي تشبهه فيعود الزمن إليه.

في تلك اللحظة الممتلئة بالقلق وعرق الخوف, بدأ أيوب الركض كما فعل فورست جامب حين شعر برغبته الملحة في الركض, ركض لدقائق الطريق الذي يعرفه جيدًا لكنّه لم يستطع أن يميّزه آنذاك, مدفوعًا بالقلق الذي ما تزال تحفزه رائحة امرأةٍ لا يعلم ما الذي تصنعه الآن في غيابه, حتى قاده إلى حيث يجب أن يكون هناك قبل ساعة من الآن, وحين وصل كانت المحطّة مزدحمة كذلك, لكن هذه الوجوه لا تبدو مألوفة البتة بالنسبة له, لا أحد هنا يشبه أولئك الذين اعتاد أن يلتقيهم في مثل ذلك الوقت, لم يعر اهتمامًا بالغًا بالموجودين وراح يبحث عن إيليف.

كانت إيليف في تلك اللحظة تبحث عن سماء أخرى تحتويها, وأيوب ما يزال يبحث عنها تحت سقف المحطة, لكن الساعات كلها كانت تشير إلى وقت لا يعود, وكانت كل البوصلات تشير إلى السماء, بعضها تبكي, وأخرى تحاول أن تعرف سببًا مقنعًا لما يحدث, أو طريقة لتشرح لأيوب ما الذي يحدث, وما الذي سوف يحدث بعد ذلك..

أين إيليف الآن؟ قال في نفسه وهو ينظر في ساعته

لقد بدا المكان غريبًا آنذاك, فالشمس ليست في مكانها المعتاد, أمام وجهه مباشرة, فهو حتى الآن لم يرتدِ نظارته الشمسية, ولم يشعر بأنّه يحتاجها حتى تلك اللحظة على غير العادة, وازدحام السيارات أقلّ مما هو عليه في مثل هذه الساعة, وكل شيء حوله أيضًا, ما دفعه للارتياب قليلاً, والالتفات إلى الرجل بجانبه, والذي كان يرتدي قبعة صوفية تغطّي أذنيه, ليسأله:

هل يبدو لك اليوم غريبًا؟

لا.. أجاب الرجل

كم الساعة الآن

التاسعة

لا يمكن للكهرباء أن تصعق أيوب بهذه القوة, فاستدرك الرجل

- خمس دقائق قبل التاسعة

راح يحدّق في شاشة هاتفه وتدمع عيناه من لفح الهواء البارد وطول التحديق إلى الرقم المتكرر في شاشته, كان قد قرّر ألا يهاتفها لأنّه لم يرد أن يعتذر على الهاتف, قرّر أنّه سيلتقيها, سيركض إلى المحطة ويلتقيها ويعتذر عن تأخّره بالطريقة السّرية التي يعرفانها معًا, سيقول شيئًا عن حماقته وستبتسم له بخفّة, لكنّه يدرك الآن أنّه تأخر كثيرًا وأنّ أمامه المزيد من الركض والمشاوير.

وأدرك أنّ يومه الذي بدأ بشكل مريب سيظل مزعجًا حتى ينتهي, وبأنّ إيليف قد انتظرته لساعة قبل أن تيأس من الانتظار وتذهب وحيدة إلى عملها دون أن يتأكد بنفسه من أنّها وصلتْ إلى الباب الأخير في المبنى الذي تعمل به, لقد جنّ جنونه آنذاك, وارتعب من منظر

الشارع ومنظر يديه اللتين بدأتا في الارتعاش بقوة فأسقطتْ أوراقه, ونثرتْ بقية التوازن الذي كان يحاول الاحتفاظ به, قبل أن يعاود الركض من جديد, من أجل أن يلحق بها.

لم يكن أيوب ينتظر آنذاك أيّ تأكيد على أنّه سينجو مما حصل, لقد شعر لوهلة بخيانة الوقت له, وشعر بالفقد يهبط عليه من فوق, كطائر جبلي أسقطته طلقة طائشة, وبدا كما لو أنّه يزور هذا المكان للمرة الأولى, إذ غابت التفاصيل الكبيرة, عاد وحيدًا ينظر للمسافرين والعابرين من هنا إلى هناك, وابتعدتْ خلف الضباب سنواته الأخيرة من لقاءاته الصباحية مع إيليف وتماسك الأيدي في هذه المحطة. لقد عاد أيوب غريبًا من جديد, العربيّ الذي نسي اللغة التي تعلمها, ولكنة العاصمة, وأغنيات عديدة دأب على ترديدها في الصباحات الباردة وهو يهبط من شارع تونس, وأخرى رقص عليها مع إيليف, عاد الشاب اليافع الذي استقل سيارة أجرة من قريته الصغيرة في البعيد الجنوبي, ثم إلى الرياض وحيدًا ليدرس في جامعتها, ومن ثم ليعمل في عدّة شركات بعد أن أعطى الجنوب ظهره بنيّة أن لا يعطيها منه وجه مرة أخرى، وبرغم أنه أراد من الرياض برزخ عبور للدراسة، إلا أنه علق فيها بما يكفي لينكش بهمة عن نجاة بعيدة، تعطيه ما يحتاج من دعة الإسمنت، والكثير من الأخضر الذي يعرش على ضريح أمه في الجنوب، فكانت تركيا العثمانية وجهته الآخيرة.

تذكّر أيوب نفسه حين عبر عتبة البيت الخشبية, متجاوزًا زهيرات البنّ الحمراء الزاهية, مخلفًا وراءه رجلاً يجلس أمام موقد نار طينيّ, ولولا ارتجال النقش الملون على جانبيه لأمكن القول بأنّه بُني بعد انتهاء بناء المنزل بعشرات السنين, وشعلة نار تريد الانطفاء منذ سنوات وبقايا امرأة (كانت زوجة والده) ولم تعد كذلك, إذ ظلّ والده يخفي موتها لشهر كامل, ويسكب عليها أربع مرات يوميًا قوالب الثلج, في وسط حوضٍ صغير, بعد أن أجلسها كما لو أنّها تتناول وجبة عشاء على أرض منخفضة, ولما ازدادت أسئلة الجارات اللحوحات استأجر والده بائعة متجولة في السوق العام, ثم ذهبا إلى المحكمة, هناك تقمّصت المرأة دور الزوجة الغائبة وطلّقها والده ثلاث طلقات أمام القاضي, شهد على ذلك كاتب العدل وعامل النظافة, بعدها تسلّمت البائعة مستحقاتها واختفت في السوق, أما بعد

ذلك فهو يدرك ضخامة الأسئلة التي ستسقط على رأسه, ظل حبيس البيت ثلاث ليال, ليخرج معلنًا خبر الطلاق, ثم رحيلها إلى عائلتها في الشمال البعيد من البلاد, في تلك الليلة ضُرب أيوب من قبل والده حتى أدمى ظهره لأن لسانه كان سيقود والده إلى المشنقة, يَذكر أنّه سعل بقوة حين أدرك فداحة خطئه ليخفي صوته, وليفقد الجارات تسلسل الأسئلة.

لقد شعر بالألم في مكان العصا الصّلبة التي كان يحملها والده على الدوام, أحسّ بذلك على بعد آلاف الكيلومترات, أحسّ بها حتّى وإن كان والده قد مات ربما, فهو حين تركه كان مريضًا, أحسّ بذلك الألم حين استجمع قواه ليلحق بإيليف التي كما يبدو استقلتْ الحافلة التالية, وربما ركبتْ التي تليها, ويمكن أن تكون قد ذهبتْ في سيارة أجرة, وقتها التفت في المكان الذي بدا جديدًا بالنسبة له, وأخرج هاتفه الجوال وشرد للحظات يبحث عن شيء ما, لقد أصبح وجهه شاحبًا في ذلك الوقت, وحين رفع الهاتف إلى أذنه كان عنقه قد انخفض شيئًا قليلاً وكما لو أنّه يتأهّب أن يتلقّى صفعة على قفاه, ومع أنّ الطقس كان باردًا إلا أن قطرات العرق كانت بادية على جبينه ومن تحت إبطيه مطبوعة على قميصه الأزرق.

لم يجب أحدٌ على الهاتف, فانطلق متحاملاً على ألم ساقه الذي عاد من جديد وعلى آلامه القديمة التي ظهرت مع ذكريات والده وزوجة والده, ليبحث عن إيليف, أو ليلحق بها في مقرِّ عملها المقارب لعمله.

- لابدّ أن تكون غاضبة مني الآن, قال في نفسه.

ومن ثم أشار بيده التي ترتجف بقوة إلى سيارة أجرة توقفت فورًا لحظة رؤيته, فركب سريعًا وسط صمت رهيب.

- إلى أين يا سيد؟, سأله السائق.

لم يكن هذا السؤال الذي ينتظره أيوب البتة, إنّه لمن الصعوبة أن يستجمع قواه ليفكّر في هذه الأشياء مرة واحدة, لن يكون منطقيًا أن يجيب بنفسه على كل الأسئلة في هذا الصباح, حيث أنّه قد قام بتأجيل الكثير منها حتى يجد الوقت المناسب, الوقت المناسب ليس الآن مع ذلك هو بحاجة ماسّة لأن يجيب على هذا السؤال أيضًا ليتمكن من اللّحاق بحبيبته إيليف.

توجّه إلى منطقة شاه يولم؛ أجاب أيوب مستجمعًا كلّ الأحرف التركية التي تعلمها وتدرب عليها منذ قدومه.

لقد كانت نافذة السائق مفتوحة, تمامًا كما كانت نافذة الأجرة التي أقلّت إيليف بعيدًا في كل الاتّجاهات السماوية, لذلك فقد هُيئ له أن شيئًا من رائحة إيليف قد وصلت إليه, فطفق ينظر من كل النوافذ ويتنقل مابين الجهتين كطفل يبحث عن السيارات الملوّنة التي تتجاوزه مسرعة من ميمنته إلى ميسرته, مع نظرات متفاوتة للخلف وأخرى ينظر بها بعيدًا إلى طرق أخرى فرعية, إنّه الأمل الذي صنع الرائحة, وانعدامه سيقود إلى حتفه دون هوادة, لقد كان يعي ذلك تمامًا فكان لزامًا عليه أن يتشبث بقشّة الرائحة التي بدأت في التضاؤل آنذاك ليحل محلّها رائحة الخوف والهلع, ومن ثم رائحة والده, ورائحة الدماء التي نزفها في تلك الليلة, ليلة قرّر الهرب.

وضع أيوب يده على أنفه, وقطّب جبينه, في الحقيقة لم يفعل ذلك متعمّدًا بل أرغمته ذكرياته الحزينة التي تتّحد مع حاضره البائس, فعل ذلك كما لو أن الأمر لا يتعلق به, إنها أحاديث الماضي الذي يجهله الآن كما يجهل حاضره, أحاديث الماضي التي كان يستقيها من خلال نافذته الطينية, وهو ينظر إلى زرائب الماعز وهو يقلّب كفيه, ويستمع إلى أحاديث الشارع عن والده الذي يعرف حقيقته جيدًا, إذ شاع في ذلك الزمن أنه طلّق زوجته لأنه رآها تجمع المرمر المصقول من أسفل الوادي, حيث تتأخر بين شجرات الطلح وهي تحني رأسها بين قدميها, فتظهر مؤخّرتها للجميع, وتوارد إلى سمعه وهو يكنس الغبار أمام بابه بمكنسة القش القصيرة, بأنّ الرجال يذهبون كلّ مساء قبل الغروب إلى

أسفل الوادي, ليستقبلوا الراعيات وينظروا إلى مؤخّرة زوجة والده, كانوا يصطفّون بجانب بعضهم يستمنون برؤية أفخاذها التي تحمل ردفيها التي كانت في مخيلتهم متوردة بأثر الحرارة, ثم يدفقون ماءهم على أحجار الصفى الكبيرة المواجهة لهم, والتي عادة ما تشير إلى انتهاء ملكية أرض أو ملكية دفقة بعد أن يفقدوا ملكيتها لصالح الأرض, حيث زُرع المئات من أبنائهم الذين ربما تحولوا إلى أشجار طلح أخرى بأصول آدمية, أو إلى أشواك.

كان قد وصل إلى مسمعه كذلك أن والده سيعود مساءً بعد سماعه الأقاويل, ويدخّن عروق الطلح اليابسة التي اخترعها القرويون هناك بدلاً للتبغ الباهظ الثمن, ويسعل قليلاً وبعد أن يطلب العشاء سيطلب من زوجته آنذاك خلع ثوبها الأخضر الفضاض ثم نزع ثوبها الأصفر الأقل فضفضة وأكثر التصاقًا بجسدها, ويطلب منها دون تلطف أن تخلع سروالها وحين وجده ملطخًا ببقع دم الدورة الشهرية الداكن, أخفى عود ذرة نصف أخضر وراء ظهره, فهو أولاً أجلّ فكرة ضرب مؤخرتها وثانيًا.. طلاقها.

أيوب في سيارة الأجرة لا يعرف ما الذي جاء بكل هذه القصص الآن, لماذا تتزاحم هذه الأشياء على الخروج, فيما هو يريد أن يتابع الطريق إلى إيليف التي بالطبع ستكون غاضبة جدًا, عطفًا على اتصال البارحة الذي أجراه في وقت متأخّر ليقول لها ليلة سعيدة يا حبيبتي, وليرسل قبلاته لها عبر أثير شركة الاتّصالات الوطنية. كم يبدو ذلك مربكًا, وكم يبدو أيوب مرهقًا وهو يتذكّر أكثر مع أنّه لا يريد, وذلك ليس الشيء الوحيد الذي لا يريده, فهو يريد أن يصل بسرعة إلى إيليف, ومن ثم يجدها تبتسم له, يريد أن يتأخّر مديره عن الحضور اليوم, يريد بعد ذلك أن يجد مبررًا مقنعًا لما حصل معه, وما يحصل معه الآن, يريد أن يعرف حقيقة ما حدث.

إنّها الحقيقة..

حقيقة كل شيء, لا يمكنه أن يدفع ثمن الحقيقة القديمة التي أخفاها في ماضيه, حقيقة أن زوجة أبيه بعد ارتدائها للثوب الأصفر فقط, وبعدما ظنّت بأنّها لم تكن إلا محاولة مناكحة فاشلة, عادت إلى أحجارها المصقولة, وانكبّت على تلميع القطع الأكثر تعرضًا

للتراب ومخلّفات البقر والديدان الطفولية, بعد أن كسرت حجرًا كبيرًا فتطايرت أشلاؤه, حقيقة أنها كانت تلك الليلة الأولى التي أضاء فيها وجه (مهرة), وعكس ضوء الفانوس الهزيل أجزاء الحجر المكسور فتحوّل ضوءاً أكبر, اتّسع وكأنّ شركة القاز التي طال غيابها عادت, وملأت الفانوس زيتًا ملونًا قابلاً لانفجار اللون في عتمة الغرفة الصغيرة, وفي منتصف الحجر كان هناك احمرار على شكل خط غير نافذ تحيطه هالة أخرى فيروزية اللون وكأنه عضو فتاة بلغت للتو. وتحولت دهشتها إلى خوف وهي تفتح الأجزاء الأخرى لتجد أشكالاً متشابهة وتفتقد إلى التطابق وتماثل الألوان, عادت ترتدي الثوب الأخضر المخيط لأغراض العمل, إذ يحتوي على جيوب أكثر من ثياب ثلاثة رجال مجتمعين, بالإضافة لما بين نهديها الناضجين والمتقوسين, وبعد أن فرزتْ كل لونٍ على حدة, صنعت عقدين لها, من الحجر البراق, ودميةً صغيرة ببقيّة الألوان التي لم تكفِ لصناعة عقدٍ آخر.

فعلتْ ذلك للأيام التالية, جمعتْ مرمرًا أكثر, واستمنى الرجال أكثر, وسمع والده أكثر, وعادتْ أكثر إلى معملها الصغير وغلت بعض الشاي لها, وبعض ثمر التوت البري في وعاء كبير, انشغلت بالبيت ورتّبت الموقد الطيني ومسحت عنه الرماد, وأعادتْ إشعال الحطب, جلت أرضيات البيت الطينية والمغطاة بطلاء أخضر سميك على جنباته خطوط حمراء وأحيانًا صفراء وكأنّها تحدّد أيّ المساحات قُرّرت لتكون طريقًا وأيّ المساحات لابدّ أن تكون غرفة جلوس أو غرفة نوم, بقيتْ تعمل طوال فترة المغرب وهي تسمع فقاعات التوت البري ترتفع وتنفجر, لكنّها واصلتْ عملها على تلميع المباخر الفخارية المنقوشة, وتنفيض الرماد من النافذة لتذروه الرياح بعيدًا ولئلّا يسقط على سطح آخر في بيتها.

عادتْ بعد أن أُنهكتْ من واجبات المنزل وأحسّت بالدم ينزل من فرجها بغزارة, مع ذلك واصلت إلى القدر الذي غلت فيه التوت البري, لتجده مزيجًا ثقيلاً يكاد يتصلب, والملعقة الحديديّة الصغيرة التي بدأت بها لم تعدْ تكفي لجعله يدور حول نفسه ليختلط ويمتزج جيدًا. من ثم غمر دميتها, لأنّها لا تريد المجازفة بالعقدين في هذا الامتحان, وظلّت الروائح تتوافد لتغطي رأس مهرة, فبعد امتزاج رائحة التوت اللاذعة والتي ذكّرتها بطعمه الذي يحوّل اللّسان إلى لونٍ أحمر وإلى شيء حارق لخلاياه بعد تناول كميّات كبيرة, حاولتْ

مهرة بيدها فتح نافذة المطبخ إلا أنّ يدها أخطأت الطريق وأسقطت فانوسها المملوء بالقاز فأشعل حريقًا بسيطًا تدارك معه والد أيوب كل شيء, فهو في تلك الأثناء كان يعبر عتبة البيت الخشبية التي ودّعها أيوب بعد ذلك, فأطفأ شعلة النار تحت الموقد, والشعلات الطفولية على أرغفة الخبز, وعلى الباب الخشبيّ الوحيد, وتدارك مزيج التوت فيما خيط الدمية ما يزال يتدلى إلى الخارج. تدارك الدمية, لكنّه فقد كل الماء الذي حمله طول الطريق إلى هنا, وفقد مهرة التي ربما ذُعرتْ فتوقّف قلبها أو اختنقت من الدخان بعد أن وضع يديه على رأسها وسط المدخنة لتموت ببطء الدخان, وبلون الفضيحة السوداء التي لاكها سكان القرية في أيامهم الأخيرة.

وقبل هبوط الليل تحوّل والد أيوب إلى تجمّعات الماعز والأبقار العائدة من المراعي القاحلة على بعد ساعاتٍ من هنا, تعود جائعة أكثر لتجد الشعير منثورًا على صاجات حديديّة ملونة باحمرار الصدى, ثلاث صاجات للشعير وصاجان من الحديد المصقول للماء المتّسخ, والتي لا تمانع البهائم من شربه بمشاركة ضفادع البرك المؤقتة التي تظهر في الأيام الماطرة, لتتبول على كل شيء تلامسهُ بأجسادها اللزجة, كان والد أيوب مع أصوات الضفادع وصوت اجترار الأبقار يتأكد حتى ذلك الوقت من أن مهرة فعلاً تجاوزت العتبة الخشبية إياها, ولابد من التأكد أن عبورها ليس باتّجاه عتبة خشبية أخرى ولا حديدية ولاحجرية, بل إلى عتبات أبعد بكثير تلك التي تخصّ السماء.

بكى والده حينها مثل كل مرّة يخسر, فسمعه أيوب من غرفته المظلمة, وسمع ضربات يديه تهوي على جدران المنزل الطينية, تسقط معها ذرات غبار كانت تغطّي الأفق المظلم إذا مرّت أمام خيوط الضوء المتسربة من النوافذ الرديئة, وبعد دقائق عاودث الضربات وعاد الغبارُ يسقط بغزارة, فتغطت أرض الغرفة, شعر وقتها بالخوف يشبه حالته الآن, لأن هناك قطعًا أكبر من الغبار تسقط فوقه, فتحرّك بهدوء إلى تحت (العسلة) وهي خشبة كبيرة تكون أساس السّقف, فتوقّف التراب وتوقّفت الأشياء الأكبر من الغبار, بعد أن توقّف والدُه عن ضرب الحائط بيديه.

لقد تحرّك والده ونقر باب غرفته ثم شرع في تنظيف الآثار التي نتجت, وأشار بيده دون كلام إلى أواني المطبخ النحاسية ليجمعها ومن ثم ليعيدها مكانها, لقد فهمه دون كلام, وفهم أن عليه إخفاء كمية التوت المغلية في أحدها دون أن يسكبها في المجاري, أو طمرها في تراب أحواض أشجار الرمان الكثيفة الملاصقة لبنيان المنزل, بعدها نصب وسادتين من القماش الأبيض المطرّزة ببعض الفراشات الملونة, كانتْ في وقت مضى تخصّ مهرة, قبل ساعات فقط, ألبسها أحد ثيابها وجمع أعواد القشّ المتناثرة حوله من مكنسة المنزل الوحيدة وكوّرها بيده, حتى صارت بحجم رأس مهرة ليربطها بمنديلها الأسود, ومن ثم يجلسها على كرسي بالقرب من نافذة تطلّ على الفناء الخارجي لذلك المنزل الملعون, كل صباح ليراها الجيران, قبل أن يعيدها من جديد إلى الحوض وإلى قطع الثلج, فعل ذلك أمام أيوب الشاب الذي أجهز عليه الصمت في ثلاثة أيام.

رأى أيوب الطفل آنذاك كل ذلك ولم يكن ليعنيه, وشدّته ذلك رائحة البنّ من جديد, التي عادت مع ظهور الموت في حياته فزادتْ زهيرات البنّ احمرارًا, وتفجرتْ إحداهن وخرج منها سائل قانٍ, فكانت تلك أول زهرة بُنّ تنفجر في ذلك الموسم, ومع أنّه انتبه لذلك اليوم جيدًا وحاول في الأيام التي تليه تذكّره وكتابته على كل مفكرات الوقت وكل الأوراق التي قد تسقط أمامه وعلى جذوع أشجار اللبخ وأشجار الطلح التي ستقابله بعد أن يترك ذلك المكان.

إنّه الوقت الآن لدفع تلك الفاتورة يا أيوب.. فكّر في ذلك والهواء البارد يخترق السّيارة من نافذة السائق, إنّه وقت التراجع عن الفكرة, والتّمسك بالواقع, إنّه الوقت الذي يسيطر على الأشياء من حولنا, لا أحد آخر يفعل ذلك, الوقت مع القليل من المحفّزات, والقليل من التردد والتماهي, وأيوب يدرك أن لا شيء يحدث فجأة, الفجأة التي تعني بالضرورة أن لا شيء يحدث جملة واحدة, الليل لا يأتي كله في الساعة السادسة ولا حين ينتصف اليوم, أي مباشرة بعد أن ينتهي النهار وتذهب الشمس لتمدّد قدميها المشتعلتين على الدوام, ولا يأتي حين تكون الأغاني تتأرجح في الشرفات والشوارع الضيّقة, أو تتأهب لتأتي على مهل بكل كآبة الألحان الحزينة, والكلمات المتحررة من الذوات المكلومة والمنهوبة بالعتمة

والظلام, القمح كذلك لا ينبت على الفور, والعنب الحامض يكون بذرة أولاً ثم نبتة صغيرة ثم نبتة أكبر تبحث عن جدار أو سقف تتسلقه, ثم عنبًا حامضًا يحتاج للوقت لكي ينضج ومن ثم ليصبح أحلى ويتلون أكثر, وإن حالفه الحظ ربما تحوّل إلى نبيذ, النبيذ أيضًا يحتاج للوقت ليكون مقنعًا ولذيذًا, والخمرة بلا وقت ليست جديرة بالليل, ولا بالقصص المكذوبة على ألسنة السكارى.

الوقت الذي تسبب في كل شيء كان هو السبب الآن في تطاير ذكريات أيوب كغاز طيار, ليختفي كل شيء ولا يبقى إلا صوته الداخلي الذي يشبه أصوات مذيعي المطارات, ممزوجًا بالصدى الذي يكون في أقوى حالاته حين يمرّ ببطنه الخاوي منذ الصباح, كان أيوب في ذلك الحين لا يعرف أيّ الأصوات التي سمعها مؤخّرًا هو المصدر وأيّها كان الصدى, وكان من الغرابة أن تتناسل تلك الأصوات ومن ثم تنعزل عن المجموعة حين تصبح كلمات أخرى مستقلة, لتنطلق من جديد إلى تلك المعدة التي امتلأت مع الوقت بأصوات قرقرة منقوصة, وأخرى ولدت وماتت في مكانها لأنّها كانت فرحة بعض الشيء فاختنقت بفعل غازات الحزن التي انتشرت على نحو مفاجئ في كلّ أيوب.

سُلب أيوب ملكة الكلام, لذلك أحس وقتها بأنّه لم يكن هناك شيء في فمه, فتحه ليبكي, أو لينهار, فلا أثر لقطعة اللحم الوردية, ولا للحبيبات المزعجة التي اعتادت الظهور هذا الوقت من الصباح, ما الذي يمكن لأيوب أن يفعله في موقف مشابه, هل يغمض عينيه مثلاً محاولاً العضّ على الفراغ الذي بين فكيه, أو يتحسّس بأسنانه الهواء الذي تدفعه رئتاه بشكل متّصل إلى كلّ جسده خفية عن الرّياح الحزينة في داخله وبمعزل عن الغازات النتنة التي تصدر عن معدته المسكونة بالصدى والصوت, والأكيد أنّه في أثناء ذلك بكى, لكن لا أحد يستطيع إثبات ذلك في مثل تلك الظروف.. فهناك لعاب يجهل مصدره, يأخذ قيلولته مكان اللسان, ويهبط من أي ثغرة يجدها.

لم يقف أيوب مكتوف الأيدي, لقد حاول الحديث وقتها أكثر من مرة, جرّب نطق الله, لكن هواء آخر يهبط به إلى القاع, ليجد دماء غريبة تجوس فيه بسرعة, وتصطدم ببعضها

منتجةً الكثير من الضجّة والأصوات الجديدة, الكثير من الصدى فيما بعد, والتي تكون في مجملها مرتفعة فوق كوة من الظلام, لا يمكن ردمها بالفوانيس, أو بالحديث الحميميّ الذي يدخل عن طريق الأذن أو من أي طريق آخر, ومطر غزير يحطّ على كل شيء, فيصيبه بالبلل, وتكون جدران المكان زلقة, ولا تحتفظ بأيّ سر في هذا المحيط, قبل أن تهبط باتّجاه مكان يملؤه الصدأ في هذا الوقت من الليل, أي بعد انقطاع الطعام لأكثر من ثلاث ساعات, تطارد أشباه الألسنة اللائي يحاول خلقهن في أماكن مختلفة, تحسّبًا لما قد يحدث مستقبلاً.

البارحة, البارحة القريبة, سهر أيوب بصحبة الأمل, الذي يفقده الآن, ولا يبدو غريبًا أن المطر لم يتوقفْ في الخارج, الأكثر غربة أن المطر ليس من عادته أن يأتي في هذا الوقت, أتراه شيئًا يخص هذا الفقد, وأنّ الله أرسل إليه المطر كأوّل المعزّين, البارحة كانا قد ناما سويًا, وهو الآن يفتقده أكثر من فقده لإيليف نفسها, فطوال الليالي السابقة يحدث أن يبكي أيوب لأسباب تافهة, لكنه الليلة سيبكي لأسباب أكثر وجاهة, ولن يتوقف بأي حال, أعني أنّه لن يعنّف نفسه, وسيوحد بكاءه بذات الأنين الذي يستطيع إطلاقه بمعزل عن وجود اللسان, ذاك الذي يأتي من الداخل, من أشلاء, وخلايا في الداخل, تجيد إصدار أصوات مماثلة تناسب الوضع الذي قد يحتاجه الجسد, أي الذي يحتاجه الآن.

في ذلك الوقت كان الخوف قد انتقل إلى سائق التاكسي الذي كان يرى شخصًا مضطربًا يجلس خلفه, ويضع يديه على بطنه حينًا كلما شعر بتلك الأصوات في معدته, وأحيانًا يضعها على زجاج النوافذ التي أقفلها السائق لفرط ما أخرج يديه ورأسه منهما وكأنّه يريد أن يلتقط شيئًا من الخارج, ورقة شجر, أو رائحة, أو قطرة مطر, شيئًا ما من الخارج أو قد تكون حزمة من الأشياء, أي شيء قبل أن يصل أيوب الذي لم يسبق له الوصول قبل الآن.

فلطالما مشى الدرب الطويل وحيدًا من أجل أن يصل, لم يمشه لتوقفه زحمة المرور, ولا شرطي السير, وكثيرًا كاد أن يصل لولا أن الطرق سلكت به إلى طرق أكثر تشعبًا بحجة الاختصار, وأحيانًا بحجة حرارة شمس آب, لو لم يتظلل بأشجار الشوارع, ولطالما مشى

في الأزقّة المخفيّة الخلفيّة, وفي الشوارع الأمامية, وكثيرًا ما رأى جيرانه يمشون معه ذات الطرق المتشابهة, ثم يتفرّعون في مسالك صغيرة, وأزقّة مخفية وخلفيّة تخصّهم, ثم يخرجون من جديد إلى الشوارع الأمامية فيلتقون من جديد ويختفون مرة أخرى, ولطالما وصلوا, ودائمًا لم يصل رغم كل المرشدين وأبناء المنطقة.

لم يحدث أن وصل أيوب حتّى التقى إيليف, ويبدو أنّه في تأخّره عنها يتعثّر في الوصول, كما أنّه بقي عاجزًا عن رؤية الصورة التي يريدها لحظة وصوله إلى الخيط الرفيع الذي سيشدّ في الأرجاء, اللحظة التي سيسقط على ظهره كما يفعل عدّاء أفريقي, ويسحب نفسًا عميقًا يقود إلى رئتيه, مغلّفًا بمشاهدات الطريق الطويل الذي اجتازه طوال السنين التي مضت, الطريق التي أمضى ربعها في النوم, ووقت لا يمكن تجاهله في الأكل وفي التبول, وأوقات أخرى في كتابة المذكّرات التافهة, والكثير من الأوقات في محاولة معرفة الطرق التي لا تؤدي إلى نهاية ليتجنّبها, ووقت أطول في كتابة يافطات تشير إلى أنّها طرق مشؤومة, ثم قضى بقية الأوقات في السير في طرق تتناسل من جديد, وهي في النهاية طرق لا تؤدي إلى نهاية.

انحرفت السيارة التي تحمل أيوب عن مسارها أكثر من مرة, لقد فقد السائق سيطرته على السيارة, المليئة بالخوف والحزن والقلق والفجيعة, وكان السائق الخمسيني الذي ظل يحدّق في أيوب منذ استوائه على الكرسي يعرف بأن الفجيعة التي تصدر من جسد أيوب هي الوحيدة القادرة على تحريف السيارة بعيدًا عن مسارها, ليس الخوف أو القلق, وليس الحزن فهو حزينٌ على الدوام, فلطالما حمل في سيارته المطاريد الخائفين والمرضى القلقين ومرافقيهم الأكثر قلقًا دون أن يفقد سيطرته على سيارته.

كان الطريق إلى منطقة عمل أيوب طويلاً, لكنّه اليوم أطول مما بدا عليه على الدوام يزيد من صعوبة الأمر الازدحام في بداية الطريق, وهو ما يعطّل السيارات الرافدة على الطريق السريع من الأحياء المتوزعة على جنباته بالإضافة إلى الحافلات ومحطات الانتظار عند التجمعات السّكنية, وذلك يبدو مألوفًا في العادة, لكن شيئًا ما يحدث اليوم, هناك في نهاية

طابور السيارات, كان السائق في ذلك الوقت يفتح النوافذ على التوالي لفترات زمنية قصيرة, ويعيد إغلاقها بعد أن يتغير هواء الخوف الذي تسرّب إليه وبدأ يشعره بالنعاس, لقد كان السائق من ذلك النوع الذي يلجأ إلى النوم عندما تتغير عليه الأشياء, فهو ينام إذا أحسّ بالجوع, وينام إذا ما كان حزينًا أو متشائمًا, وهو الآن يصارع تلك الرّغبة الملحة.

ما من شيء يمكنه أن يوقف الطريق إلا القدر..

قالها السائق بصوت مسموع, واستمع له أيوب المتورط بنفسه, لكنّه ظلّ صامتًا لأنّه تورّط من جديد في فهم تلك النبرة التي كان يتحدّث بها السائق, فظنّ بأن تلك الجملة لم تكن إلا جملة اعتراضية تشبه ما كانت تقوله جدته حين يضيق بها المكان, بذات النبرة المتوارية التي تحتمل وجهين, لذلك استمر في التنقّل مابين جانبي التاكسي وكأنّه يبحث عن شيء.. أما السائق فلقد أقلقه هذا الصمت, الذي أحضره هذا الراكب معه فأظلم المكان, وأصبحت كل الإذاعات تبث ذلك النوع من الألحان الكئيبة والحزينة, تلك التي كانت رائجة في فترة الثمانيات, وهو في الوقت ذاته لا يفضّل عادةً أن يبدأ الحديث مع الزبائن بل ينتظرهم حتى يطلقوا شرارة الكلام, وفيما يبدو وكما فهم السائق فإن زبونه الحالي ليس من ذلك النوع, لذلك فضّل أن يبدأ بتلك الجملة الاعتراضية من أجل أن يبدأ الحديث.

الأحاديث في تركيا تبدأ من الطقس, وإذا ما أردت أن تبدأ حوارًا مع فتاة جميلة في حانة ما, أو في صالة انتظار ما, في المقهى, وفي المطعم, في كلّ مكان, فعليك أن تبدأ حديثك من هناك، ومن أجل هذا فالأتراك لا يفوّتون النشرات الجوية, كما يجب عليك اختيار الوقت المناسب كذلك لكي تبدأ, السائق يعلم هذا جيدًا لكنّه ولسبب ما فقد ارتبك, وبدأ الحديث بطريقة أخرى, وكما يبدو فإن الارتباك يطال الجميع داخل السيارة وخارجها, فهناك العشرات من السيارات التي يتصرف أصحابها بشيء من النزق في ذلك الصف الطويل من السيارات, ومع ذلك فلقد التزم أيوب الصمت في انتظار تأكيد السائق لنواياه في الحوار من عدمها, ولأنّه في الحقيقة لا يفكّر إلا في إيليف.

إنه الوقت من جديد, فالسائق بدأ يطفئ محرك سيارته في لحظات الانتظار الطويلة توفيرًا للوقود, وهاهو الوقت من جديد يثير شغب الأصوات والجمادات, فلا شيء يعلو فوق صوت المنبّهات هنا إلا صوت دقات قلب أيوب المتسارعة في خط عموديّ ولا تريد التراجع أو الهبوط, فهو يشعر في تلك اللحظة بأن الدم يندفع بقوة إلى كلّ مكان في جسده, ويحسّ بالضغط على جفنيه وعلى وجنتيه, كما أن عروقه تنبض هي الأخرى بشكل استثنائي, وقضيبه منتصب, والوقت غير مناسب لكل هذا, هناك فوضى عارمة لم يحتملها, لذا فتح باب التاكسي في واحدة من الوقفات العديدة وخرج ليعرف ما هو الشيء الذي يعيق الوقت أن يمرّ بسرعة, ولمّا تعذّرت رؤية نهاية الطريق الذي كان قد بدأ بالانحناء, صعد فوق السياج الحديدي على جانب الخط, لكن السّياج لم يكن مرتفعًا كفاية فقز على سقف التاكسي دون أن يدرك, لم يكنْ أيوب متأكدًا مما رآه من الأعلى, لكنّها سيارة أجرة أخرى تعترض الطريق, وتعترض الوقت.

كانت الفرصة مواتية لسائق التاكسي لأن يغضب, ولأن يطرد أيوب خارج سيارته بحجة أنّه قد سبّب أضرارًا بسقف السيارة, وهو ما فعله مباشرة, فهو لم ينتظر أن ينزل أيوب عن السقف, بل خرج له وهو يصرخ به:

لا بدّ أنك تشعر بحكة في مؤخرتك, فأنت لا تستطيع الثبات في مكانك, لا بد بأنك إبنة((1)) منذ ركبت معي وأنت تقفز من نافذة لأخرى هل تحس بألم هناك؟

لم يعره أيوب أي انتباه, إذ كان مشغولاً بحمل أغراضه التي نثرها السائق على الأرض الإسفلتية, ومن ثم بالتنحي قليلاً إلى كتف الطريق والبحث فيما بعد عن تاكسي آخر, هذا الطريق ليس بالمكان الذي يمكنك فيه إيجاد تاكسي بسهولة, فسيارات الأجرة التي تمرّ هنا إما أن تكون مشغولة أو يكون سائقوها يهمّون بالعودة إلى منازلهم وعوائلهم, إذن فقد قطع أيوب ما تبقّى من المسافة مشيًا على قدميه, وهناك سمع أكثر.. أصوات خطوات مماثلة, لكنّه حين كان يلتفت لم يكن أحد يشاركه الطريق إلا سيارات تغلق نوافذها كلما مرّ بمحاذاتها.

في بداية الأمر شعر أيوب ببعض الراحة, فهو قد تجاوز العديد من السيارات, وحين التفت إلى الخلف كانت سيارة الأجرة التي طرد منها قد اختفت, وشعر وقتها بأنّه قد جذب عقرب الدقائق ونفخ فيه الروح ليدقّ من جديد, وبدأ يراقب ركاب السيارات المحاذية, فهناك أولاً وجوه تضيء بسرعة, ثم تنطفئ بسرعة أكبر, وإيقاعات سريعة تنطلق من مسجلات السيارات, لكنها أقلّ سرعة من انطفاء الوجوه, وأسرع بقليل من إضاءتها, وفتيات يلبسن ملابس ملونة, ورجال نصف نيام, وآخرون مستغرقون في النوم إلى جانب زوجاتهم اللواتي ينشغلن بالقيادة وتهدئة الأطفال في المراتب الخلفية, لكن ذلك لم يدم, فسرعان ما عادت الرائحة من جديد, فكانت أكثر فتكًا وتشتيتًا له, و حين لا يكون الأمر مقنعًا, تساوره الشكوك حول ماهية الأشياء التي تعيش حوله, وهذا ما حدث, ولوهلة شعر بأن هذا الحلم لابدّ أن ينتهي, إنّه الوقت المناسب للصحو من الأحلام عادةً, حين تبدأ شكوك الحلم في التحول إلى خوف حقيقي, إنّه الوقت الذي نصحو فيه عادةً ونغيّر من طريقة اضطجاعنا ونعاود النوم, قبل الشعور بإحساس التفاهة الذي يشعرك بأنك الوحيد الذي ينتظر, وبأن ثمة كهولاً تركوا الليالي دون صلاة من أجل أن يبذلوا البكاء الجدير لك وعليك بهذه الخيبة, وسكارى تركوا الملاهي الليلية في منتصف السهرة, وقبل أن يسكروا بما فيه الكفاية لكي يناموا بعمق, فثمة طريق يأبى أن ينتهي دون موجز أخبار الطقس, وأطفال يبكون لأن أمهاتهم يفعلون ذلك, وشباب يصلون للمرة الأولى, ثمة غصة كبيرة تلتهم الوقت الذي لا ينتهي.

كان الطريق ينحسر شيئًا فشيئًا, فمن ذلك المكان يمكن رؤية انفراج السيارات وكأنّها قطرات ماء تخرج من أنبوب لم يحكم إغلاقه, وفي المقابل هناك مالا يمكن وصفه, شيء ما يعبث بتفاصيل أيوب, كان المكان يعرف أنه وحيد, وخائف, فيقترب, ثم يطول قليلاً وينزلق من بين يديه إلى شوارع أخرى قصية, وكان أيوب يدرك أنّه إذا ما غالطه ومرّ دون أن ينتبه إليه, فسيقضي العمر وحيدًا, غير مكترث بمعرفة ما تخبّئه له الوحشة.

وحين يصل ستكون تلك هي المرّة الأولى التي تأكد فيها أيوب بأن الطرق المخفيّة أكثر من تلك المرسومة على الخارطة, وبأنّ الوصول إلى النّهاية لا يعني بالضرورة نهاية القصص,

وحتمًا سيكون هناك لبس, وسيكون هناك الكثير من البكاء الذي كان قد بدأ فور انحنائه لجمع أشيائه التي بعثرها سائق التاكسي, ومن ثم ازدادت حدّته مع تقدّمه في المسير نحو نهاية الازدحام, لم يكن من السّهولة على أيوب رفع قدميه الثقيلتين ومن ثم مواصلة المسير, كانت هناك عشرات الأيادي التي تشده من الخلف, وعشرات أخرى من الأصوات تهتف بأن يتراجع عن الوصول, رغم أنّه وكما يعلم أو كما يشكّ, إن وصوله سيكون متأخّرًا, متأخّرًا كما كان عن الحافلات التي تخرج في مواعيدها المحددة, وعن سيارات الأجرة, وعن مواعيد الطيران, عن وسائل النقل, وعن كلّ ساعات العالم القريب, وحتى العالم البعيد بعد غرينتش, عن عمله وعن الحبّ, وعن إيليف, ومن ثم متأخّرًا عن حياته فيما بعد, متأخّرا بما يكفي لإفساد فرحة العوالم القريبة.

ساعة الصفر, وساعة أخرى تحت الصفر, ستكون بعد قليل, مع إصراره على البلوغ, برغم نقص الأوكسجين في رئتيه, وعينيه الحمراوين, وعضلاته المتعبة من الإشارات المتناقضة التي يرسلها القلب فيلغيها العقل فور مرورها به, في الحقيقة لم تكن ساعة صفر, كانت لحظة صفر, جزءاً من اللحظة التي اقترب فيها أكثر من سيارة الأجرة التي كانت تعترض الطريق والشاحنة التي لم يرها إلاّ الآن, وهو يرفع قدميه بثقل شديد, وأضواء سيارات الشرطة, والشال الأخضر الذي كان يضيء حول عنق إيليف يوم انقطعت أصوات الموسيقى التي كانت تصله من العازفين المتجوّلين في شارع تكسيم, وتلاشت صلوات المتسوّلات اللواتي افترشن الطرق المؤدّية إلى المطاعم الراقية, وتوقف أطفال السياح العرب وغير العرب عن اللعب, فيما اكتفى البقية الذين مرّوا بجوار أيوب بالمشي بصمت, وكأنّهم يمشون على الهواء, فلا وقع أقدامهم يشتّت ذهن أيوب, ولا خيوط دخان الأراجيل التي يقدّمها المقهى ذاته تحجب رؤية الفتاة الهادئة ذات الشال الأخضر الذي تلعب به رياح الربيع في الطريق السريعة.

الفصل الرابع

لم يكن الموت يومًا قصة أولئك الذين يموتون, بل قصة الأحياء الذين يأتون بعدهم حاسرين روؤسهم, يجوبون الشوارع بحثًا عن روح ضائعة أو طرف حكاية يتّبعونها نحو حكايا أخرى تقودهم إلى مكان آمن, بعيدًا عن شبحية الصورة الأخيرة في الفصّ الأيسر الذي يحتفظ بالذكريات القديمة في الرؤوس المشحونة بالحزن والفقد.

ساعة أيوب تشير إلى 8:16 كان قد ضبطها في وقت انتظاره قبل أن يتمّ طرده من التاكسي, وقبل أن يمشي إلى حتفه بقدميه ليرى الشال الأخضر يرفرف على السياج الحديدي في جانب الطريق بعيدًا عن عنق إيليف, الحقيقة أنّه لم يمش إلى حتفه بالمعنى الحرفي, بل سار مثقلاً ليرى المكان الأخير لفتاته, وليملأ عينيه بالمكان الذي طبع على قرنية عينيها قبل أن تصعد روحها دون شالها الأخضر إلى السماء, حيث كان الله يمدّ يديه لها دون شك, لم يكن هناك أية تأكيدات بأنّها كانت قد رحلت بالفعل, أيوب كان قد تسمّر لمدة طويلة وهو يحدّق في المكان دون أن يتحدّث مع أحد أو يسمع شيئًا, كان منشغلاً بصوت الريح التي تعبث باللون الأخضر, وتطّير روحه وتعيدها حين يشرف على الإغماء.

هذه الأخبار لا تحتاج إلى ساعي بريد, وإذا ما كنت صاحب شأن فإنّك سوف تشعر بها على كل حال, وهذا ما حدث لأيوب, فبعد أن انزاح نحو السياج الحديدي, متواريًا عن صوت سيارة الإسعاف وعن اللون الأحمر الذي كان يغطّي بقعة واسعة على الإسفلت الأسود, وبعد أن أخذ وقتًا ليس بالقصير, علم بواسطة عظامه, وصفير الريح بين طبقات الخشب المهجور بين ضلوعه بأن إيليف لم تعد هناك, وبأن هذه اللحظة هي الأنسب للبكاء دون شك, هي الأنسب للبكاء لأولئك الذين يجيدونه.

أولاً يصيبك شيء من الوهن الذي لا تعرف مصدره, ثم يتحوّل الأمر إلى عجز جزئيّ تستطيع الإحساس به ولا تستطيع مقاومته, ثم تصبح جسدًا مثقلاً ولا يمكنك الانتقال إلى

مراحل أسوأ لأنّك في الحضيض. كانت قد انفضّت الجموع وسيارة الإسعاف, ثم جاءت عربة ضخمة وحملت طرفي الحادث المميت, الشاحنة وسيارة الأجرة, وبعد ذلك جاء رجال المرور متبخترين بزيّهم الرسميّ ليصلحوا أخطاء القدر, ودّ أيوب لو كان يسعهم أن يرمّموا فارق التوقيت الشتوي والساعة الثامنة, ويعيدوا سيارة الأجرة إلى مكانها, ومظلة إيليف تحت المحطة, لكن عبثًا.. القدر لا يمكن معالجته! ثم جاء عمّال النظافة وغسلوا بقعة الدم على الإسفلت, ومرّت سيارة إسعاف أخرى بصوتها المهيب, ولم يغيّر ذلك شيئًا من عجز أيوب الذي ظلّ متسمّرًا بجانب اللون الأخضر, عاجزًا عن كل شيء حتى عن البكاء, الآن ما الذي يتعين على أيوب أن يفعله؟ الخيال الذي يقف في مكان ما على الطريق عاجزاً عن الحركة, القلق منذ الصباح, الذي استنزفه الوقت شيئًا فشيئًا, لقد كان ذلك الشعور غريبًا بالفعل فهو لا يزال قادرًا على تحريك قدميه ويديه, لا يزال يتنفس ويستطيع النظر في الاتجاهين ولف عنقه بشكل طبيعي, إلا أنّه لا يستطيع الحركة, كان يشعر بأن حجرًا ثقيلاً قد رُمي في صدره, حجرًا أثقله وسحبه للقاع, حجرًا حين لمسه الخوف أكل جسد أيوب الذي لا يستطيع أن يخطو إلى الأمام, في حين كان كل ما يرغب به هو الركض إلى الخلف, الركض إلى حيث إيليف دافئة ويمكن أن يضمّها بلا جزع, الركض إلى حيث إيليف تنتظره على الناصية, ويأخذان نفس المحطة.. نفس الطريق, ولا تأكل الساعات الوعد الذي انطفأ بينهما.

اليوم يبدو كل شيء مختلفًا, حتى من وجهة نظر أيوب الذي يقف متسمّرًا, يقوده عجزه عن البكاء أولاً وعن التفكير ثانيًا, وعن الحركة ثالثًا لمراقبة الأشياء, التي بدت سريعة أكثر من ذي قبل, وكأن أحدًا ما يعبث بجهاز التحكّم الإلهي, ما الذي أخل بهذا الترتيب الأزلي, وغيّر مسار الأشياء؟ وقتها تملّكت أيوب الفكرة المرعبة أنّ شيئًا ما يحدث, وأن ما يحدث سينهي حياته إلى الأبد, حياته كما عرفها, التي انتهت بالفعل عندما انطفأت عينا إيليف, ما الذي حدث؟ كان السؤال قد أمضّ روحه التي تركها معلّقة, تحاول أن تفهم ما الذي حدث, لماذا افترق شال إيليف عن عنقها؟ ما الذي حدث منذ الثامنة التي جاءتْ متأخرة؟ لِمَ تأخر عن الثامنة؟ لماذا تأخرتْ الثامنة عنه؟ لماذا فقد موعده مع الأخضر حول عنق إيليف؟ وعن

القهوة في عينيها؟ كان يأمل أن يلحق بها, لتتك بطرف اثنين من أصابعها على ساعته, ومن ثم تقول له وحاجباها مُغضَبان: تأخّرت! كان سيضحك قليلاً, قليلاً فحسب.. ثم يأخذ رائحتها تحت ذراعه ويمضي.. لكن الإسفلت والساعة الثامنة أخذا منه كل شيء! وتركا روحه, مرتفعة قليلاً عن جسده تذهب وتجيء مع رفرفة الشال الأخضر الذي تعبث به الريح!

لقد كانت محض فكرة, لكنّها راحت تطارده! الأغلب أن ذلك الهاجس قد طرأ له منذ زمن بعيد, أكثر من مرة فكّر بالوحشة التي تنتابه مع بداية الربيع, في كلّ عام كما لو كان يفقد شيئًا منه, لقد اعتصره التوقيت الجديد, فتحوّل في النهاية إلى مجرد طيف يحتاج إلى المزيد من الوقت ليستوعب ما حصل, وربما يحتاج إلى أكثر من الوقت, بالإضافة إلى جملة من التبريرات التي لا يستطيع إجابتها أحد, ولا يريد إجابتها حتى الله الأعلى في السماوات, الذي يراقب معه في هذه اللحظات حركة الشال الأخضر في يد أيوب العاجزة عن التلويح.

إذًا إنّه الوقت الذي أفسد كل شيء الآن أفسد كل ما حدث, أفسد حياته وذكرياته, وسيفسد عليه مستقبله, سيفسد عليه أيامه حتّى اللحظة الأخيرة والنفس الأخير. الوقت الذي لن يعطيه مبررًا لما حدث, ولن يمنحه متّسعًا لإصلاحه, لن يمكّنه من تجاوزه وسيجلس بكامل ثقله على صدر أيوب, غير عابئ بأيّامه السوداء ثم الرمادية. سيجلس في رفقة الذنب وسيكونان في صحبة أيوب حتّى في مناماته القصيرة وكوابيسه المعتمة. لا يعلم أيوب ما الذي راح يركض في رأسه, لكنّه كان مؤلمًا مثل وطء خيول ترمح في البريّة, راح صدره يدق مثل الطبل وشعر بحاجته للبكاء ولإعطاء الوقت وقتًا كافيًا لشرح كل شيء.

بعد أن يمرّ الوقت سيصبح أيوب عاجزًا أكثر لأنّه سيجد نفسه في معمعة الفقد, مسكونًا بالخوف من جديد, ممتلئًا بالحنق والحقد, سيكون عالة على نفسه, هاربًا من بابه إلى أبواب الجحيم التي ستترك المدينة وتنتقل إلى حياته, هناك حيث المكان الأنسب لرحلة

الجحيم الخفيّة التي تنتظره, في اللحظة التي سيصبح ألمه حقيقة لا يمكنه الهرب منها, تحديدًا عندما تتحول الليالي إلى كوابيس, والمقاهي إلى شراك تحاول النيل منه, لكن متى سيدرك أيوب بأن هذه اللحظة الهادئة والعاجزة هي تلك التي تسبق العواصف المستمرة التي ستحمله إلى الأماكن التي لا يريد زيارتها, وقتها سيدرك أيوب أن هذه الأوقات هي بمثابة لحظات التخدير التي تسبق دخول الجراحات المميتة.

كان أيوب يقف أمام باب المستشفى في تمام الساعة التي لم ينتبه لتفقدها, وبعد ساعة من الآن ستكون الصدمة في أشدّ حالاتها, حين يفيق العقل من سكرة الرعب ليغرق في سكرة الفقد, ستكون الأشياء أبعد وأثقل مما تظهر عليه في المرايا, وسيكون الألم حادًّا, والذكريات فتاكة لدرجة أنه بدءاً من هذه الليلة سوف يصاب بالأرق لمدة عامين دون أن يعرف ذلك, لكن أيوب لا يستطيع استقراء مستقبله, وهو بالطبع لا يستطيع الفرار من ماضيه الذي سيلاحقه من شارع إلى شارع, وسيقطع عنه الماء والكهرباء والرغبة والدهشة, سينزع من عينيه الألوان ومن قلبه الحياة, ولن يستوعب أبدًا ما حدث.

في الأفلام ينهار من يتعرض لموقف مشابه, وعادةً ما يكون ذلك الانهيار لحظيًا, يسقط مغشيًا عليه في غرفة الانتظار, ثم يصحو ليجد نفسه في غرفة ما, غالبًا ما تكون لأحد أصدقائه, ربما يلجأ إلى الشرب والسكر لينسى معاناته وبعد شهر أو شهرين يعود إلى حياته, ويعود الآخرون إلى حيواتهم.. حين يستوعب أيوب ذلك سوف يقول: ما أجمل حياة الأفلام, لكنّه لن يقول ذلك لأن حياته ليست فيلمًا بأي حال من الأحوال بعد أن تحولت منذ تلك اللحظة إلى ساحة لتضارب القدر مع الدعاء, وهو بالتأكيد لن يسقط مغشيًا في غرفة الانتظار, لأنّه لم يسمح له بالجلوس فيها من الأصل, كما أنّ الوقت غير مناسب للتعريف بنفسه لوالدها الذي يبكي كما يفعل أيوب بالضبط.

تعاظم حزن أيوب لأن الوقت لا يلعب إلى جانبه, فيما يرى الآخرين في غرفة الانتظار من وراء الستارة الزرقاء الطويلة يتخبطون في القلق والخوف, يصيبهم تيار الهواء البارد الذي يجيء من المكيف السقفي ليزيل قطرات العرق التي تنبت على جباههم, القطرات الفارّة

تسقط داخل الملابس لتختفي هناك, بينما يجلس أيوب في الخارج عينٌ على باب غرفة إيليف, وعين أخرى على والدها, تلعب به قطرات العرق بعيدًا عن هواء التكييف, وتتسابق لتسقط على جسده الملتهب, وحين تلامس بشرته تسمع حسحسة الماء الذي يسكب على الأجسام الساخنة.

إنها غرفة انتظار, يقول أيوب في نفسه, انتظار الموت والذكريات التي ستلاحق الجالسين هنا, وأصوات الأطفال الباكية التي تصدر من إحدى الغرف المجاورة لا تفعل المطلوب منها, لا تشتت تفكيره بل تبقيه مركزًا على الألم وقلق الانتظار, ليراقب الأبواب التي تفتح, ينتظر طبيبًا أو اثنين يخرجان من غرفة إيليف ليلقيا التحية على والدها, لكن ذلك لا يحدث حتى هذه اللحظة, والأطفال يستمرون في البكاء, والنساء اللواتي يجلسن بعيدًا في غرفة الانتظار نفسها يربتن على أكتاف نسوة غيرهن ويتبادلن المخاوف فيهدأن بعض الشيء, لقد راقب أيوب كل الذين دخلوا مؤخّرًا إلى غرفة الانتظار ولاحظ أنّ الوقت وحده هو الذي يخفف من حدة المواقف, ليس الطبيب ولا نتائج الفحص, إنّهم يتأقلمون سريعًا مع الأمر ويرسمون السيناريوهات السيّئة للشخص الذي أتوا من أجله, فترتخي العضلات, ويسترخون ثم يبحثون عن الجرائد والكتب ليقطعوا الوقت بسيف القراءة.

تساءل أيوب هل لو كنت في غرفة الانتظار سأستطيع النفاذ من هذه الكتلة الثقيلة من القلق والخوف والحزن, ولأن تساؤلاته دائمًا ما تكون مأزقًا بالنسبة له, فإن صوتًا داخليًا يحاول تفسير مالا يفسّر, يشبه إلى حد بعيد أصوات مذيعي الطائرات, إنّه صوته المختنق, المتشنج, فيما يجلس على بعد أمتار قليلة من السرير الذي تنام عليه إيليف كملاك, وهو يقف على الأرض المستوية للمستشفى العام في وسط المدينة ويشعر في الوقت ذاته بأن الأرض تميل به, تعبث به, يشعر بأنه يقف على كائن القلق, ولا يستطيع أن يعرف ما الذي يجري في الداخل, ولأنّه يعرف عائلتها ويراهم يدخلون يحدوهم الأمل, ثم يخرجون منكسرين تملأ أعينهم الدموع, لتغرق عيناه هو الآخر, إذ لا يجدون مكانًا لدموعهم أفضل من عينه التي تلاحق كل تحركاتهم, يتلقف سيل الدموع ويبكي بصمت, ويحتفظ بالدموع في عينيه أطول وقت ممكن, وإذا ما اقترب والدها, وإذا ما شعر بأن الدمع سيفيض من

عينه يمّم وجهه تجاه قبلتها وأغمض عينيه, فيتسرب الفائض منه وينسكب على جسده, والحقيقة أنها قطرات حارقة, تحمل صفات ماء النار وخليط آخر من الكيمياء الحارقة, التي لا تفسر شيئًا مما يحدث.

يجلس في حيّز الحزن, في مداره الأقرب لنواته, وقوته العظمي, بالقرب من السرير الأبيض الذي تجلس عليه إيليف, مغمضة عينيها تحلم به أو تلعنه لأنه سبب كل هذا, يحاول إدراك ما الذي قد يريده القدر منه هذه اللحظة, ما الذي قد يريده منها وهي عاجزة الآن عن الحركة.

الوقت متأخرٌ جدّا على البكاء, وما هذا الصوت الذي يستمع له الآن أيوب في رأسه, همهمة صلوات تتلى في الغرف المجاورة لغرفة إيليف, أم صوت تهشم عظام المرضى الذين يأتون باستمرار إلى المستشفى العام في الجانب الشرقي للمدينة, وهذا الرجل الذي يقف بالقرب من غرفة إيليف, الملتحي ذو القدم الاصطناعية يعرفه أيوب حق المعرفة مع أنّه لم يتحدث إليه قط بشكل مباشر, إذا أهملنا الرسائل العديدة التي لم يرسلها له, إنّه والد إيليف الذي يبكي دون هوادة بينما يعجز أيوب عن ذلك.

لم تكن الخيارات متاحة لأيوب قبل هذا اليوم, ويبدو أنّها لن تتاح بعده, فلطالما كان هناك خيار واحد فقط, ولطالما كان الخيار بابًا وحيدًا في جدار يمتد بلا نهاية, وكلما فتح بابًا وجد جدارًا آخرًا وبابًا آخر, وكم يبدو الأمر غريبًا حين يستغرق أيوب وقتًا طويلاً ليبحث عن الباب الوحيد, إذ أنّه لطالما كانت الجدران عالية ولا يمكنه رؤية الباب بمجرّد خروجه من الباب الذي قبله, وأحيانًا يسلك طرقًا بعكس اتّجاه الأبواب, إنها ليست لعبة أبواب بالطبع, وليست امتحانًا كذلك فالامتحانات غالبًا تحتوي اختيارات متعددة, وإنها جرأة أيوب التي جعلته يفكر بذلك, ويشكّك في نزاهة ما يحدث وهو يحتاجه بشدة الآن لينقذ إيليف, كما أنّها ليست بالفكرة المناسبة أن تصرخ لتطرد كل هذه الوساوس في مكان عام.

مع ذلك صرخ أيوب بصوت مسموع, لم تكن صرخة, كانت أنّة حيوان جريح, أو ما ظنّه أيوب كذلك, إلا أنّ من كانوا حوله سمعوا زفرة خفية تأتي منه, الزفرة التي شدّت ناحيته

انتباه والد إيليف له, لكنّه لم يبدِ أيّ اهتمام, فلديه ما يقلق حياله, ولدى أيوب ما يقلقه أيضًا, ليدرك بأن الشيطان أيضًا لا يساعده, وإلا كيف للشيطان أن يكون تافهًا ليطرح في رأس أيوب تساؤلاً من نوع, من تراه في هذا المكان يحب إيليف أكثر؟

- أنت ؟ أم الرجل الملتحي المؤمن ذو القدم الاصطناعية؟

الشيطان يعرف متى وأين يشعل فتيل الفتنة, وغرف الانتظار المكان الأنسب لينزغك شك حول جدوى الأشياء التي حدثت, كان أيوب في تلك اللحظة يدرك بأنّه ما من أحد يستطيع فعل شيء حيال حزنه, وبأن صدره ليس مكانًا آخر لنزاع الرب والشيطان, فلا شيء سوف يخفف حزنه ولا الشيطان قادر على الذهاب به أبعد مما هو عليه.

وبينما كان أيوب يتابع بقلق باب غرفة إيليف الأبيض, الذي تحيط به الجدران البيضاء, والذي لا يدخل أو يخرج منه إلا ذوو الملابس البيضاء, شعر ببرد البياض وتذكّر الشتاء الذي انقضى فجأة وخلق الفوضى في حياته, وشعر بأن حياته توقفت هناك على حافة الشتاء ولم يعد بإمكانه الذهاب إلى الربيع والذي لن يأتي هو بدوره, سيبقى معلقًا في اللازمن إلى جانب الساعة التي سرقها الصيف من يديه قبل موعده, وخطف فتاته, وأحلامه, وسكينته, وسرى في قدميه الوهن الذي امتدّ إلى ركبتيه فهزّها البرد والوهن معًا.. تمسك أيوب بالمقابض الممتدة على طول ممرات المستشفى, زحف بكل أثقاله إلى الكرسي الأخير في غرفة الانتظار, وعلق عينيه على باب العناية المركزة غرفة الأسرار التي تهمه ولا يستطيع اقتحامها.

وصل أيوب إلى وجهته لكنّه وصل شاحبًا, وحين التفت إلى المكان الذي كان يقف فيه زفر بصوتٍ عالٍ, لقد كان الطريق من هنا إلى هنا طويلاً جدًا, المسافات المحفوفة بالخوف لا تحسب بالأمتار, إنّها حتى وإن بدت خطوات يقطعها الأطباء والعاملون في المستشفى في ثوانٍ, إلا أنّها ليست كذلك لأولئك الذين لديهم الكثير ليحملوه على صدورهم, وفور جلوسه سحب قدميه إلى الداخل وأخذ نفسًا عميقًا, وأسند رأسه للجدار الأبيض والبارد, شعر بلسعة البرد على عنقه فرفع ياقة قميصه وأعاد رأسه ونام في مقعده.

فور نومه سمع المنتظرون في القاعة أيوب يصرخ بصوت عالٍ, يهمهم, يصرخ ثم ينتهي برفس الأشياء حوله, وهو ما دفع السيدة وطفليها اللذين يجلسان إلى جانبه إلى الانتقال إلى مكان آخر, كان كثير الحركة في نومه على عكس صحوه, يجذب الأعين نحوه, لقد بدا الجميع منتبهين لكلّ سكناته لكنّهم في الوقت ذاته لديهم ما يقلقهم أكثر من هذا الرجل الشاحب المجنون, ولو أنّهم شاهدوه في الخارج لكان ذلك الأمر مدعاة للتندر والسهر وتصويره بالفيديو ونشر بعض المقاطع على موقع اليوتيوب.

غفا أيوب لكنّ خوفه بقي مستيقظًا ليحيط به في غرفة الانتظار لكي لا يستسلم جسده لإلحاح عضلاته ويغرق أكثر في نومه بدلاً من القلق بشأن إيليف التي لا يعرف الكثير عن حالها بالرغم من الأمتار القليلة التي تفصلهما, لقد تحول أيوب في ساعاته الأخيرة إلى جبان عاجز لا يقوى على القيام من مكانه والسؤال عن ما الذي يحدث خلف ذلك الباب.

استيقظ في تلك اللحظات وهو مهيأ للحزن بشكل لم يسبق له, من المؤكد أنه رأى في منامه منظرًا أرعبه وجعله يتصبب عرقًا في غرفة الانتظار الباردة, استيقظ شاحبًا وكأن ريحًا أتت على أرضه فدمرتها وتركته معلقًا في مكان مرتفع ينتظر السقوط والتهشم, ومع أنه حاول أن يخفي ذلك عن الذين يجلسون إلى جانبه إلا أنه فشل في ذلك, لذلك فقد بادرت سيدة خمسينية بمناولته كوبًا من الماء ومنديلها الخاص.

ليس من وقت أنسب من الآن للانسلال خارج غرفة الانتظار, ومن ثم يسلك الممرّ القصير إلى الخارج ليصرخ ومن ثم يعود ليراقب الباب بحزم أكبر, وهو ما حدث بالفعل, استجمع أيوب قواه وسار إلى الخارج وفي فمه صرخة مكتومة منذ الصباح, وكانت في تلك اللحظات قد تحولت إلى أزيز يسمعه الآخرون وهي تحاول الفرار من سجن فمه, فيخرج شيء منها من بين أسنانه وجزء يتسرب كلص من أنفه, أطبق على فمه وأسرع في مشيته نحو الباب مرورًا بحارس الأمن الذي نظر إليه بحزن وأراد أن يواسيه لكن خطاه السريعة أخذته إلى الخارج قبل أن يقترب منه, إن ما يفعله أيوب في تلك اللحظات لا يمكن فهمه, فقد احمرّ وجهه لفرط ما كتم أنفاسه, كان كغريق يبحث عن هواء, وحين بلغ الباب فتح

فمه للصرخة لكن شيئًا لم يخرج, لقد كان إنذارًا خاطئًا, ليس هو المعنيّ بهذه الصرخة حتى الآن, سوف تأتيه في وقت لاحق بالتأكيد, وهناك صرخة أخرى لشخص آخر في هذه اللحظة تنطلق في مكان ما خلفه, إنها صرخة مدوية, شعر معها أيوب أنها تخصه, وحين التفت كان الرجل الملتحي ذو الساق الاصطناعية يصرخ ويبكي كما لم يره من قبل.

الفصل الخامس

ودّ أيوب أن يهرب من نفسه إلى الشتاء من جديد, إلى غيمة داكنة ترعد فوق منزله وتمطره مع حبات البرد ليتدحرج بفعل الجاذبية والسقوط حتى بابه الخشبيّ المتآكل, ومن ثم ينفض التراب الذي أصبح رطبًا به عن جسده, ويدخل من تحت العتبة المنخفضة, ويعود من جديد أيوب القديم الذي كان يعرفه قبل انتهاء الشتاء الرسمي, يلبس ملابسه اليومية ويخرج ليلتقي بإيليف ويعتذر عن كل شيء, عمّا فعل وعمّا لم يفعل على حدٍّ سواء, عن التأخر, وعن الأشياء التي لم يمهله الوقت بينهما ليفعلها, وعن الحماقات والأخطاء التي ربما سيسوقه القدر ليرتكبها, ويحمل مظلتها عنها ويضمّها ويمضيان إلى المستقبل.

رغبات أيوب باتت كلها تتعلق بالزمن, وتذكر بحزن ليلة شتاء ماضية في سؤال إيليف:

لو كان هناك آلة للزمن, إلى أي زمن تودّ أن تعود؟

كان السؤال مفاجئًا في تلك الليلة لأيوب, فهو منذ عرفها قبل أربعة أعوام لم يفكر يومًا في أن يعود بالزمن للوراء, إذ كان سعيدًا, متصالحًا مع كل شيء, يحب إيليف ويحب نفسه لأن إيليف تحبه. كانت الحياة بصحبتها كما لو حطّت من «باراشوت» قلق إلى سفحٍ أخضر, وكان يستطيع أنّ يصف حياته إلى جوارها في جملة وحيدة تختصر عليه الكلام: كانا هانئين معًا! ومع ذلك لم يتسنَّ له الإجابة لأنه أصيب بالخوف والرهبة من السؤال, وحاول أن يتهرب من الإجابة غير مرة, وهو ما حدث بالفعل فقد فهمت إيليف هذا القلق وغيّرت

مجرى الحديث حين رأت عينيه متسمّرتين في السقف وشفتيه تدندن بأغانٍ قديمة, وحزن أكثر حين تذكّر بأن لا أحد مثل إيليف يستطيع فهمه واحتواءه كما تفعل, لقد حمل السؤال أمتعته ووقف على صدر أيوب.

الآن وأيوب يترك المستشفى وراءه أصبح قادرًا على الإجابة على هذا السؤال الذي نسيه مؤخرًا, الإجابة السهلة التي لن تكلف آلة الزمن أي شيء, يومًا واحدًا فقط, ساعة واحدة قبل الثامنة كانت سترفع عنه هذا القدر الغادر! ساعة منبه تستيقظ حين يجدر بها, أو فارق ساعة للتوقيت الشتوي لا تقسم حياته من المنتصف! فكّر أيوب وقتها بأن هذا الطلب ربما يكون الأيسر في قائمة الطلبات التي ترد يوميًا لمشغلي آلة الزمن ومع ذلك بدا الأمر مضحكًا بالنسبة له عندما كان السؤال متاحًا في حضرة إيليف فهو لا يتذكر أيامه قبل سنوات, ولا يتذكر أنّه كان صغيرًا, ولا يذكر أوّل يوم في المدرسة ولا هداياه ولعبه, ولا يذكر أوّل نزهة قام بها, ولا أوّل تفاحة أكلها, لكنه يتذكر أشياء أخرى لا يستطيع الهروب منها, تمامًا كما سيحدث معه طيلة حياته.

تاه الحديث في منتصف أيوب, وكأنّما الكلمات تلاشت في سواده, والحروف التي اعتادت على الصعود للأعلى هوت في معدته, فأحسّ بها وربت على بطنه قليلاً ثم عاد ليفتقد إيليف من جديد, ويدرك جيدًا أنه عاجز عن الحديث كعجزه عن الحياة في تلك اللحظة, وإذا ما كان هاتفه لم يتوقف عن الرنين طوال تلك الساعات التي كان يجاهد فيها الوقت والقدر, فإن مديره السيد كمال في العمل الذي اتّصل به كثيرًا أرسل له رسائل عديدة أيضًا بعد أن فقد الأمل في أن يجيبه صوتيًا, الرسالة الأخيرة كانت شديدة اللهجة, وحين أراد أيوب أن ينظر لساعة أخرى غير التي في يده, حتى يتأكد من أنّه يعيش الحقيقة وبأنّ الحلم لم يتمادَ إلى هذه اللحظة, لاحظ عشرات الاتصالات وبضع رسائل, التي كان آخرَها تهديد من السيد كمال بأنه يتعين عليه إنهاء العمل الذي أصبح مهمًّا بشكل مفاجئ قبل نهاية اليوم وإلا سوف يتخذ في حقه الإجراء المناسب.

في أماكن عديدة يطلق الإجراء المناسب على مرحلة التصفية, لقد ظل السيد كمال طوال الأشهر الأخيرة ينظر إلى أيوب بشيء من العنصرية, السيد البدين ذو الرقبة المكتنزة الذي لا يجيد شيئًا إلا شرب القهوة طوال الوقت, وحين ينتهي من كوب وقبل أن يشرع في الآخر يأخذ جولة على الموظفين ويشتم الجميع, قبل أن يعود إلى مكتبه ليتصفح بريده الإلكتروني الممتلئ بالرسائل الجنسية, وحين يغلق السيد كمال ستائر مكتبه فذلك يعني بالضرورة أنه يداعب قضيبه باستحضار إحدى تلك الرسائل.

وفي أحد الأيام قام السيد كمال بالخطأ بإرسال إيميل تفوح منه رائحة المني والشهوة إلى بريد أيوب. كانت الرسالة موجهة إلى الموظفة الجديدة في الاستقبال, لكنّه ولسبب يجهله هو والسيد كمال كذلك وصلت له الرسالة, لقد ارتبك أيوب وذهب إلى الخارج يومها ليشعل سيجارة استلفها من رجل الأمن على بوابة الشركة, وإذا ما كان الحارس قد استغرب ذلك لأنّه لم يرَ أيوب قبل الآن يدخّن, فإنه ناوله السيجارة بسرعة فائقة بعد أن رأى وجه أيوب المتلوّن وقتها, وحين تجاوزه صاح به ليعطيه سيجارة ثانية وعلبة ثقاب.

كانت تلك السيجارة الأولى لأيوب منذ سنوات, كما أنّها الأخيرة له حتى هذا اليوم, مشى بعيدًا باتجاه الحديقة التي تزيّن محيط الشركة بالقرب من مواقف السيارات, دخّن سيجارته الأولى وبدأ يفكّر بشيء من الريبة في نوايا السيد كمال, فجفل مكانه, وأخرج سيجارته الثانية وأشعلها جنبًا إلى جنب مع الأولى التي لم تكن قد انطفأت بعد, فكر مرة أخرى ثم ألقى بالسجائر بعيدًا, وشد حزام البنطلون بقوة وتوجّه بحزم إلى المكتب.

لقد كانت تلك الشرارة الأولى في سوء العلاقة التي تفاقمت بينه وبين مديره, بعد أن دخل عليه المكتب وصرخ في وجهه بصوت عال يحذّره من العبث معه, لقد كان قويًا في ذلك اليوم, فتجمّع الموظفون بالإضافة إلى الموظفة الجديدة, وشاهدوا أيوب الغاضب الذي لا يقوى السيد كمال المتسلّط دائمًا على مجاراته, خصوصًا بعد أن لمح الفتاة المعنية بالرّسالة, فاضطر إلى السكوت, واضطر أيوب بقية أيامه على تحمل الإهانات المستمرة, وحين عاد أيوب إلى إيليف ذلك المساء كانت فخورة به وقصّ عليها ما حدث كما اعتادا

في مساءاتهما معًا, فأقامت له احتفالاً بسيطًا وتناولا العشاء في أحد المطاعم القريبة, وفي بقيّة الأيام كانت إيليف تسانده بكل طاقتها ضد تجاوزات مديره وقراراته المحرجة والباعثة على الاستياء.

الآن لا أحد سوف يساند أيوب, دار ذلك في خاطره وهو يرى الاتّصالات والرسائل, وشعر بالخوف مجددًا, والحقيقة أن الخوف لم يفارق أيوب على الإطلاق منذ الصباح, لكنه يتزايد ويتصاعد من وقت لآخر, لم يكن يفكّر في تلك اللحظة إلا في إيليف, وفي الوقت, وفي الساعة التي لم تأتِ في موعدها, وحين تصفّح هاتفه رأى الرسالة الأخيرة من إيليف, لقد كان نائمًا وقتها, ولم يقرأها إلا الآن, الرسالة المليئة بالحب, الرسالة التي ستقضّ مضجعه لبقية حياته « قبلة على عينك.. تصبح على خير».

يحدث أن نموت ونحن وقوف, ويتسرّب ظلنا إلى المقعد المجاور ليرتاح من الوقوف الميت, وبالفعل, لقد توقف أيوب عن التنفس بعد أن قرأ الرسالة, وإن كان أيوب لا يزال قادرًا على الحراك بالفعل, إلا أن شيئًا قد مات بالفعل في داخله, ويبدو أنّه قد مات منذ نوم إيليف الأخير, لكنّه لم يشعر به إلا في هذه اللحظة تحديدًا, وقد أصبح الآن قادرًا على البكاء, لم يستطع الوقوف على قدميه فسقط مكانه كقطعة قماش وانتشر على الأرض وبقي ظلّه واقفًا ينظر من الأعلى إلى هذا الدمار الذي خلّفه القدر بتواطؤ الوقت وساعة غرينتش.

سمع تكتكة ساعة تعلق وتقترب, إنه شيء يشبه صوت القنبلة الموقوتة التي لطالما سمعها في الأفلام, وما من شيء يستطيع إيقاف ذلك الانفجار, ثم سمع أصوات ساعات أخرى, إنها قنابل متزامنة ستنفجر تباعًا في داخله, فكّر أيوب في ذلك, وإذا ما كان التدبير الأنسب في مثل هذه الحالات هو الهرب, فإن أيوب لم يهرب بل فتح يديه للريح وللموت, وبقي هامدًا على الأرض ينتظر الله أن يأتي ليأخذه أو ليبرر له ما حدث.

في الأفلام أيضًا يمكننا العودة للبداية بحركة واحدة نمد أيدينا إلى ذلك الزر الذي يأخذنا إلى هناك, يأخذ الزمن بيديه كطفل تائه إلى حيث يريد, ودون سبب واضح حاول أيوب أن

يتذكر في سقوطه الأخير الساعات الأخيرة دون جدوى, وكأن سدّا منيعًا وقف بينه وبينها, فأدرك حينها أن حياته ليست فيلمًا بالتأكيد, وبأن الألم الذي يشعر به الآن ليس حقيقيًا وبأن الآلام سوف تكبر كلما خف أثر الصدمة, وبأنّه تحوّل إلى خيل عجوز ملّ من الركض على الأرض الرملية, وحين التحق بصفوف الشرطة أصبح خيلاً عجوزًا مصابًا بالتهاب المفاصل الناتج من المشي البطيء على الإسفلت.

يرى أيوب بأنّه ليس خيلاً أصيلاً, ولا خيل سباق, إنّه حصان أنهكه الوقت في الحقول البعيدة, والطعام الرديء الذي يقدّم على فترات متفرقة وغير منتظمة, حصان إذا ما كبا فإنّه يواصل الكبو أكثر حتى ينتهي السباق, بينما يقطع الآخرون المضمار, أحيانًا يفوز الجميع, لكن ذلك لا يحدث إلا إذا كبا, أما حين يكون منطلقًا كما ينبغي فإنه يكتشف بأن السّباق ليس إلا تمرينًا ولا أحد يفوز به, سباق وضع لينساه الجميع, قبل ذلك كان أيوب يراهن على الخيول, تلك التي تنجح دائمًا, أما الآن فإن الوقت خذله, والإسفلت الذي طبعت عليه المكابح آثار إطارات التاكسي, الناس, الساعات, القدر, الشتاء, والربيع بطبيعة الحال, والمطر, والمظلة التي لم يحملها, فكّر أيوب بينما هو يتلقى الأدخنة من السيارات على الطريق ولا يحاول أن يتفادها, بأنه راهن بكل شيء على إيليف, ولم يتبق له شيء إلا التشرد والضياع.

هذا الوقت ليس وقتًا ملائمًا للمطر كما ظن أيوب, لكن لا أحد يأبه بما يظنه أيوب في ذلك الوقت, فجميع من مرّوا به ظنّوه متشرّدًا يتسوّل الأموال أو الملابس, وحين انتبه أيوب وجد نفسه مغطى بالقطع النقدية المعدنية, وبالقليل من الأوشحة التي تركها أصحابها على ركبتيه بينما هو مشغول بالحزن والتفكير, كان حتى تلك اللحظة ينتظر أن يصحو من نومه ليجد نفسه مستلقيًا على سريره, يستمع لصوت ببغاء جارته خيرية, يحلق ذقنه إن كان يستدعي ذلك ويعود إلى حياته الطبيعية, لكن ذلك لا يحدث الآن, اللّعبة القديمة التي كان يلعبها في طفولته حين يختبئ خلف ظهر جدّته هربًا من والده ويغمض عينيه ليتمتم «سأصحو من النوم» لا تجدي نفعًا, فجدّته لم تعد هناك, وإيليف أيضًا.

هل ستعود من جديد؟ أيوب لا يملك جوابًا لعشرات الأسئلة التي تهطل مع المطر, هل هناك هاتف في المكان الذي ذهبت إليه؟ إذا كان الجواب نعم فبالتأكيد هي ستتصل به فور استقرارها في الجنة, ربما ستسكن في نزل واسع, ربما سيعطيها الله بيتًا في الجنة وسترسل له عنوانها, حينها سيستقل تاكسي آخر ويذهب لها, وفيما الأسئلة تتكاثر وتتفرع كانت اتصالات السيد كمال تزداد, ففي الدقائق الأخيرة رنّ هاتف أيوب خمس مرات, في كل مرة يمسك أيوب بالهاتف وينظر للرقم ويعيده من جديد إلى جيبه المبلل, وكل مرة يستغرب من نفسه, لماذا من الأصل ينظر إلى الرقم, هل صدّق فرضيته وينتظر بأن تتصل به إيليف, ويقول لنفسه: إنني أنتظر الاتصال الذي لا يأتي, وحين يأتي فهو سيكون حزينًا, مقتضبًا, ينتهي قبل أن أقول أني أفتقدك, وبأني أعرف أنّ أيوب الذي كنته معك قد اختفى.

إنّه مطر حقيقيّ وسقوط أيوب حقيقيّ, واتصالات السيد كمال حقيقية, ونوم إيليف حقيقي, وكلّ شيء حقيقي إلا هواجسه, وتبلد أيوب السريع أوشك أن يكون حقيقيّاً, لذلك فقد استقبل مكالمة السيد كمال.

أين أنت يا اورسبو تشوجو؟((2)).. صوت السيد كمال المرتفع من خلف سماعة الهاتف..

صمت أيوب قليلاً, وبصق في الهاتف بصوت مسموع وقال:

عليك اللعنة يا كلب

وأقفل السماعة دون أن ينتظر السيد كمال, ثم بصق مرة أخرى على يساره وكأنه يفعل على كمال الذي لا يفهم أنه لم يكن ليقبل العمل معه لولا القرب من إيليف, تحامل أيوب على نفسه وقام من مكانه دون أن ينفض ملابسه وسار ببطء نحو المجهول, إلى حيث ينتهي هذا الطريق المزدحم, قبل أن يسمع أيوب من جديد رنين هاتفه, لم تكن نغمة اتصال بل رسالة تخبره بأنه فصل من العمل, وبأن السيد كمال الذي شتمه أيضًا في الرسالة لا يريد رؤيته مرة أخرى, بصق أيوب مرة أخرى بعد أن قرأ الرسالة, وأكمل سيره.

لماذا الوقت يبطئ الآن بعد أن فعل فعلته ها هو يمشي الهوينى رافعًا رأسه كمنتصر, إن كانت تلك حربًا أو لعبة أو نزالاً فهو بالفعل قد انتصر على أيوب بالضربة القاضية, بغير حاجة إلى برهان, فمن مشيته يمكن قراءة ذلك, كما لا يمكن للناظر معرفة كيف كانت تلك الضربة, لكنّه يستطيع التخمين بأنّ حياته قد انتهت, وبأنّه على طريق الجحيم الذي بدأ للتو, أولاً فقد إيليف, والآن فقد عمله, وسوف يفقد روحه في مكان ما هذا اليوم.

إن كان على أيوب أن يبدي حنقه على شيء, فإنه يتعين عليه أن يوجّهه بالكامل باتّجاه الزمن, ليس باتّجاه الرب, القدر, التاكسي, أنقرة, ماضيه البائس, أو أي أمر آخر, وقد يبدو الأمر محيّرًا له في البداية إذ تتداخل بعض المسببات ببعضها, لكن أيوب يعلم أنه سيجد الطريق الأنسب لتقرير ذلك, وإذا ما ظنّ بأن الله هو الزمن وهو القدر فإن أيوب المؤمن سيعدل عن أفكاره ليعود مؤمنًا كما كان, رغم جزمه بالخذلان, إلا أنّه لا يعرف إلا أن يكون مؤمنًا.

هل سوف يتوقف المطر, هل ذلك المطر حقيقيّ أم أن هناك من يبكي في الأعلى, إنّها السماء بالتأكيد تبكي, أو ربما تبصق عليه, لكنّه مضطر إلى السير, باتجاه إيليف النائمة التي لن تفيق, ليصبح مسكونًا بالحزن أكثر, كان عليه أنّ يتمسك بها, أن يتشبث بكل ما فيه من قوة بشالها الأخضر لأنّه لم يجد منجًا آخر من الحزن سواه, ولأنّه لن يجيد شيئًا أكثر من الحزن عليها, لذلك هو سيواصل المشي حتى يتوقف المطر.

أين ينتهي المطر, فكّر أيوب بذلك, فوجد أنّه من البديهي أن يكون هناك خط رفيع يفصل بين المنطقة الممطرة وتلك الجافة, لابدّ أن يكون كذلك, فقرّر أن يواصل طريقه حتى يجد ذلك الخيط, فهو لا يعرف مكانًا يذهب إليه, ولن يجد أحدًا في انتظاره في المساء, ولا رسائل تأتيه بشكل متكرّر طوال يومه, لا أحد يبكي له أو يبكي عليه, لا هدايا مفاجئة, ولا أطباق ترسل إليه من وقت لآخر, لا قبلة إضافية ما بين العينين وتصبح على خير, لا عناق على الأريكة الوحيدة, ولا الغرق الأليف في زيتون عينيها اللّوزيتين, لا أحد البتة, ولهذا

فإن أمرًا كهذا بدا منطقيًا له, ولا ينقصه لذلك إلا سجائر جديدة, وقنينة فودكا تناسب هذا الحزن.

ركض أيوب كهجمة مرتدّة, ونسي فكرة السجائر والكحول وركض بسرعة متزايدة, وحين اشتدت سرعته كان الطريق الذي يسلكه قد انتهى في مشروع حفر نفق, لقد كاد أن يسقط في إحدى البرك المائية التي ملأها المطر, ولأنّها المرة الأولى لأيوب التي يزور فيها منطقة المستشفى العام, فقد عاد للارتباك من جديد فتوقف قليلاً وتمنّى لو تكون إيليف قريبة لتهدئته ومن ثم لإرشاده للطريق الصحيح, فهو قد تاه خلال سيره المتخبط المصحوب بالبكاء والعويل ولم يعد يعرف أين هو الآن, نظر إلى الأشياء بجانبه فلم يستطع تمييز شيء, لا الشارع الذي تحت قدميه ولا الحوانيت المتفرّقة على الجانبين, ولا محطة الوقود الوحيدة بلوحتها النيون, حتى لغته التركية التي تعلمها في سنواته الماضية ذهبت مع إيليف, وهو ما وجده منطقيًا حين عجز عن قراءة اللوحات الإرشادية, فهو غير مهتم بالحديث مع أحد سواها.

كان ضائعًا لأنه بينهما الاثنين هو وإيليف, إيليف هي التي عُرفت منذ صغرها بقدرتها الفائقة على حفظ الطرق, في حين كان أيوب أخرقًا, ويضيع بين منعطفين, وإيليف إذا ما ساقها القدر يومًا في طريق ما فإنّها بالتأكيد لن تتوه بعد ذلك, لكن ما الذي ستفعله الآن في هذا الطريق الجديد الذي ستسلكه الآن إلى الحياة الأخرى, والذي لن يتسنى لها بالتأكيد العودة لتجربته مرة أخرى, هذا ما جال في رأس أيوب وهو يسير في شوارع يعرفها جيدًا ويتوه فيها الآن وما من أحد يأخذ بيده أو يجيب على الهاتف لو أراد الاتصال.

كل ما يعرفه في هذا الشارع أنه يتفرّع منه شارع آخر يؤدّي إلى بيت إيليف, ويؤدّي في الوقت ذاته إلى مقبرة كانا يمرّان بسورها دائمًا فينقطع الحديث حتى يتجاوزاها, وفي طريق العودة كانت إيليف تحبّ أن تكون خلفه ليسحبها على جنبات شارع «جناح جاديسي» الصاعدة, وتحبّ أن تكون في الأمام حين يكون الشارع منحدرًا إلى الأسفل لأن

ذلك يشعرها بالانطلاق حينًا وهي تركض, وبالأمان وهي تمسك بيد أيوب لكي لا تسقط على الأرضية الصّلبة حينًا آخر.

يبدو بأن هذه الذاكرة لا تساعد الذين لا يعترفون بالموت الذي يأتي بغتة, ويشعرون في أعماقهم بأنّه موتٌ جائر ولا يناسب أبناء المدن ولا سائقي سيارات الأجرة, فهو الآن يحاول أن يجد شيئًا يمسك به وهو ينحدر في الشارع عوضًا عن يدي إيليف اللتين يحسّ بهما الآن, رطبتين ورائحتهما زكية, ودافئتين رغم درجات الحرارة المتدنية التي تسجلها أجهزة الرصد الحكومية, وهو أمر يثير حنقه أيضًا, فكما يبدو بأن الشتاء لم يرحل بعد, ولم تكن هناك حاجة لأي تغييرات في التوقيت هذا اليوم, لقد كان قرارًا أحمقًا كما يظن أيوب, وتظن إيليف بكل تأكيد.

لقد كانت إيليف أكثر الفرحين بحلول الربيع, الربيع المجازيّ الذي تحول إلى حريق في أول ساعاته, وحرق أخضر أيوب وشال إيليف وعشرات الأحلام التي سهرت عليها إيليف كثيرًا, وعملت من أجلها بكل اجتهاد, ورفضت زوجين محتملين من أجل أيوب, الذي كان يشق حياته القاسية في تلك الأثناء ويحاول جاهدًا أن يكون لائقًا من أجل أن يكون مقنعًا لوالدها الذي كان سيبدي معارضته بكلّ تأكيد للرجل العربي الغريب الذي يوشك على خطف ابنته.

وعلى أيوب الآن أن يشقّ طريقًا آخر في الرماد الذي يخفي الجمر تحت بياضه الخادع, طريقًا لا ينتهي ببيتها الذي سينكأ الجرح على الدوام, وبالتأكيد لا يمرّ بالمقبرة التي على الأرجح سيأتي والدها وأقرباؤها ليواروها هنا, وبدوره لن يستطيع الحضور لأنّه لن يكون محل ترحيب, وبالتأكيد لن يعرف مكان قبرها, لذلك سيكون عاجزًا عن البكاء على قبرها وإحضار بعض الورود الحزينة لها في كل مناسبة, يعرف أيوب أن ذلك الطريق غير ممكن, وبأن فرصه في النجاة من ذاكرته لن تكون كبيرة وهو سبب آخر يجعله يفكّر في الطرق, وفي ذاكرة إيليف الخارقة التي يحتاج لها الآن أكثر من أي وقت سابق, أكثر من غريزة الفلاح التي لطالما ظنّ بأنّها هي ما يحتاجه في المواقف الصعبة.

غيّر من وجهته وركض بالاتجاه المعاكس, شيء ما جعله يسرع من حركته حين رأى بوابة المستشفى, الشيء نفسه الذي جعله يتوقف حين وازى البوابة, شيء أخذه من يده بهدوء وقاده من جديد إلى بوابة الطوارئ ليجد والد إيليف على رصيف المستشفى, يضع يديه على عينيه وينظر للأرض, فيما يهتز كتفاه بشكل مستمر وبطريقة متناسقة, ومع أن أيوب اقترب كثيرًا إلا أنّه لم يحرّك ساكنًا باستثناء كتفيه اللذين توقفا عن الحركة والاهتزاز.

على الرصيف ذاته جلس أيوب, لقد شعر بإيليف فور جلوسه وكأنّها تحوم حوله, فتذكّر على الفور أمنيتها بأن يتعرف أيوب على والدها, إنها الأمنية الأكثر إلحاحًا في أيامها الأخيرة, لقد آمنت بذلك الحلم وراحت تعمل من أجله وتجهّز أيوب لتلك اللحظات, وقتها شعر أيوب بأنّه يتعين عليه أن يفعل شيئًا من أجل هذه الأمنية, غير مكترث بما ستؤول إليه الأمور, إذ يدرك تمامًا أنه من غير اللائق أبدًا فعل ذلك الآن, كما أنّه من غير اللائق أن تنام إيليف على بعد أمتار من هنا وهي تشم رائحتيهما وتشعر بأنّهما في المكان ذاته ولا يلبي لها تلك الأمنية.

اقترب أكثر حتى كاد يلتصق به, ولما كانت قطرات المطر قد سكنت معطف أيوب وبدأت تمطر وتتقاطر ببطء على الرصيف وتنساب باتجاه ميله حتى وصلت إلى والدها, لقد أحس بالماء فرفع رأسه ليتفقد المكان ثم عاد من جديد إلى وضعيته السابقة دون إبداء ردة فعل لما يحدث, فشعر أيوب وقتها بحزنه من جديد, وتقوقع في مكانه وراح يبكي, إنه منظر حزين بالفعل حين يكون رجلان يبكيان المرأة نفسها في صمت, فكّر في ذلك أيوب وهو يبكي فزادت حدته ولم يعد قادرًا على كتمان صوته, وفكر أيوب كذلك هل كانت إيليف امرأة, بالطبع لم تكن مجرد امرأة, كانت كل ما يتمناه أو يحلم به أيوب, كل ما يحبه وكل ما يرجوه, فارتفعت عقيرته, وبدأ يلفت نظر الآخرين حوله, ونظر والدها كذلك.

ليس فعلاً إراديًا أو متعمدًا ما فعله أيوب, لقد كان ذلك انفجارًا لإحدى القنابل الموقوتة التي سمعها في وقت سابق, هذه القنبلة هي الأخف, ومع أن ذلك الانفجار لم يكن مدوّيا ولم يسمع به الكثير إلا أن ريحًا سوداء طافت في المكان, فأصبح الجميع كئيبًا وحزينًا

بقدر أخف من حزن الرجلين الباكيين, وحين قرر أيوب أن يكتم أنفاسه ويعاود البكاء الصامت الذي يحرق الجوف, ورفع رأسه وجد والد إيليف قد رفع رأسه هو الآخر, ورأى كذلك قطرات ماء تتعلق في لحيته الكثيفة, وحين فكّر قليلاً وجد أنه من غير المعقول أن يكون المطر قد وصل إلى لحيته فقط دون باقي جسده وملابسه, وأدرك لحظتها بأنها دموع, فعاد إلى البكاء.

استجمع قواه ووقف أمام والدها ومد يديه بخوف:

أنا أيوب

نظر له الأب باستغراب, وأخرج يمينه من معطفه ومدّها في وهن ليصافحه, وحين تصافحا توقفت الدّنيا قليلاً, فيما راح أيوب يراقب كل شيء, ويخاطب الوقت.

ليس ذلك الوقت المناسب لأن تتوقف, لقد كانت الفرصة أمامك لتقف قبل ساعات, لم أكن أريد هذه اللحظة السينمائية أن تحدث, أريد أشياء أكثر بداهة وسهولة, أريد ساعتي المسروقة, أريدها كلها ثانية ثانية, دقيقة دقيقة, أريدها لتعود إيليف إلى الحياة, ولتعود لي حياتي, أريد ساعتي هذه السنة, وأريد فرق التوقيت لكل السنوات السابقة لأقضيها معها, أريد فرق التوقيت الذي يسرقه أحد ما حين استقل الطائرة وسافر, أريد الساعة المفقودة ما بين الشتاء والصيف, أريد كل شيء حتى ذلك الوقت التافه الذي أقضيه في ضبط ساعتي في كل مرة يتغير فيها التوقيت, دون زيادة أو نقصان.

حين يعود الوقت لينتظم من جديد, فإن شيئًا ما يفقد تنظيمه في مكان ما في هذا العالم, وخشي أيوب أن يكون قد سرق لحظات شخص ما خلال هذا التوقف, لكنّه لم يكن ليبالي بعد أن فقد كل أشيائِه الجميلة.

عاد الوقت واليدان المعلّقتان في الفراغ المتعرقتان, وبعد أن تعارفا, ابتسم شيء في قلب أيوب المطمور بالدماء, ابتسم وهو يروي حلم إيليف في عقله بعد أن تعرف إلى والدها,

وبالرغم من أن الحلم بدا محرّفًا بعض الشيء, ولم يكن كما رسمته وحكته له في صباح بارد فيما كانا ينتظران عند المحطة, واستكملته بشكل تفصيليّ في المقعدين المتجاورين في الحافلة, ثم بعدّة رسائل قصيرة على الهاتف, ثم فيما كانا يأكلان الاسباقيتي على العشاء- الوجبة الوحيدة التي يزهو بطبخها أيوب, لكنّه أدرك أنه بفعل خوفه عليها, وقلقه من أن يغضبها هذا التصرف, أنّ ما حدث كان أكثر ما يمكن نيله في تلك اللحظات.

الفصل السادس

لا أحد يتعافى من الحزن, وحين نظن أننا كذلك يطلّ علينا برأسه, يومئ لنا, أو يغمز بإحدى عينيه مرارًا, وإذا ما تذكّرناه انصرف ليختفي بين الحشود ويراقب بهدوء ردة فعلنا القادمة. أيوب يدرك أيضًا أن والده لم يتعافَ من حزنه رغم كل محاولاته لردم الحفر العميقة في حياته, وهو أمر انتقل بالوراثة إليه, الفكرة الخام للعيش في الماضي أصبحت تسيطر على أيوب, تمامًا كما حدث لوالده في القرية الصغيرة البعيدة في الجنوب السحيق, الحنين الممض كان قد استولى على حياة أبيه ولم يعتقها قط.

حضر الموت كثيرًا لأيوب ولم يجده, وكان في كل مرة يأتي يترك له رسالة, في المرة الأولى جاء الموت ليسأل عنه, كان صغيرًا جدًا بحجم الكف, لقد كان مريضًا بمرض مجهول لم يشخّصه أحد, وحرارته تقارب الأربعين, الحرارة العالية جعلته يتوهج بلون أحمر, ويقولون في القرية أن أمه خبأته من الموت في شق صغير داخل الجدار الذي يستند عليه فراشها, فغضب الموت بشدة وأخذها معه, وحين كبر أيوب كانت القصص تحكى في القرية عن تلك الليلة, التي بدت له غير منطقية.

في العاشرة من عمره لدغته أفعى, وانتفخت قدماه وتورمت حتى أصبحت كالكرة, وبات يهذي في بيت جدّه بعد أن رفضت زوجة والده الاعتناء به خوفًا من العدوى, فحمله جدّه على كتفيه إلى البيت وأحسن التعامل معه, ولما اشتد المرض وقرّر كل الأطباء الشعبيين الذين جلبهم الجدّ أنّه يحتضر, حل الليل سريعًا ذلك اليوم, وأطفأ جده الفوانيس وقبّل جبينه ثم ذهب لينام, ازدادت الحمى بأيوب وبدأ يهذي وتتراءى له أمه التي لم يعرفها ولم يرَ لها صورة قط, لقد رأى امرأة جميلة الملامح فلحق بها إلى الخارج, حتى منزل والده الذي رآه يمشي ضاحكًا تحت ضوء القمر, فحمله إلى فراشه في بيت جده, لكن الموت كان قد جاء ولم يجده, فقرر أخذ الجدّ النائم بسلام, وفي مراهقته المتأخرة شهد وفاة زوجة والده, فعاش جنبًا إلى جنب مع حزن والده الذي لم يشفَ منه أبدًا.

وهو الآن يعيش حزنًا فاخرًا, يتملكه ويسلب منطقية النسيان وفرص الحياة, وحين يتذكّر أنها ساعة واحدة أحدثت كل هذه النكبات في حياته يزداد خيبة, ساعة واحدة لم يواته قلبه بعدها من مغادرة المستشفى, لأنّه يريد البقاء إلى جانب إيليف, كما أنّه فقد عمله بسبب هذه الساعة اللعينة, وأصبح رجلاً تقتله الوساوس, ينظر إلى ساعته كلّ لحظة ثم يسأل المحيطين به عن الوقت في ساعاتهم اليدوية ليتأكد أنه يعيش الواقع أولاً, ولئلا يغدر به الوقت ثانيًا.

ما يؤرّق أيوب الآن هو أن حياته لم تكن تخصه لوحده فقط, كما أنّها بنيت بصيغة المثنى, كل شيء كان يمرّ بإيليف أولاً, ينطلق من شعرها المنسدل ليحيط به, فقد اعتادا طوال السنوات الأربع الماضية أن يتشاركا كلّ شيء معًا, كما أن لديهما قائمة طويلة جدًا بالأشياء التي سيفعلانها مستقبلاً, وأشياء أخرى قد تعاهدا أن يفعلها أحدهما على الأقل إذا لم يستطع الآخر ذلك, ذائقة أيوب نفسها أصبحت خليطًا من إيليف, انضمّ لحياته كل ما لم يكن سيحبّه أو يروق له لولا أنه وقع في دائرة اهتمام إيليف أو محطّ إعجابها, ومع الوقت أصبح مفتونًا بكل تلك الأشياء, أصبح رجلاً ذوّاقًا كما كانت إيليف.

اعتاد أيوب في طفولته أن يغيّر مسميات الأشياء التي تحدث له, برغم وعيه التام بما يحدث, فحين يريد أن يؤرّخ لما يتعلق بموت جده فهو يقول منذ سافر جدي حدث كذا وكذا, وفيما يخصّ زوجة والده فهو يقول منذ طلاق والدي حدث كذا وكذا, ولأنّه لا يتذكر أمه ولا السنوات القليلة بعدها فإنه يتجنب الإتيان على ذكرها, والآن هو يفكر في طريقة جديدة للهرب من الموت, فهو يقول في رأسه: منذ نامت إيليف, أو ربّما منذ استقلت التاكسي, أو منذ الشتاء الأسود حدث أن انتهت حياتي.

ظل أيوب طوال الساعة الفائتة بعد أن صافح والد إيليف يحوم حول المستشفى ككلب ضالّ يشمّ شيئًا يعرفه ويتوق إليه فيأبى أن يترك المنطقة حتى يجده, وإذا ما طرده سكان الحي فإنّه يعود يقوده حدسه وأنفه, ومع ذلك يخشى أن يتجاوز الأبواب لئلا يتعرض للضرب أو للألم؛ تمامًا كأيوب, الخائف من العودة للألم في الداخل ورائحة

المنظفات واللون الأبيض الذي أصبح كئيبًا, وبرد أجهزة التكييف خصوصًا بعدما نال منه المطر وبلل ملابسه, لذلك وقف أيوب على مقربة من الباب ينتظر شيئًا يجهله علّه يحدث, كأن تخرج إيليف مثلاً أو تأتي رائحتها على هيئة غيمة تحمله إلى مكان آمن.

وبينما كان يقف أيوب هناك, عاد ليراقب الآخرين دون أن ينتبه لذلك, لقد كانت تلك طريقة جديدة ابتكرها عقله ليهرب من حزنه وفقده لإيليف, وكما يبدو فإن عقله لم ييأس منه بعد, ففي كل مرة يجد طريقة يصادرها أيوب ويعود بقدميه لمستنقع الحزن, فيما صوت مُلحٌّ يصرخ به: «لن تذهب إلى أي مكان, لن تنجو منه, عليك الاستسلام, فقط قف في العتمة حتى يخترقك, وحين يمتلئ الحزن بك سيبحث عن مكان آمن فيك, يضع حقيبته, وفرشاة أسنانه, وينزوي تاركًا المكان لك ولحياتك الجديدة, شرطه الوحيد أن تدعه ينام هناك ولا تحاول إخراجه, ستسمعه بعد أن تعتاد على وجوده, وحين تستغرق في الفرح سيكزك برفق, تذكر بأن الوكزة الأولى ستشعرك بالدغدغة, ربما تضحكك قليلاً هه, ضحكة قصيرة مسافتها هائين اثنتين وتشبه الحسرة, بعدها سأركلك برفق أيضًا, وحين لا تستجيب لتلك الإشارات الداخلية, سأطلق عليك النار, وإذا لم تسقط سأطلق عليك الكلاب والذئاب, سأطلق عليك الليل بوحشته, لا أحد ينجو من وحشة الليل, لذلك أرجوك لا تدفعني لذلك».

الحزن ليس شيئًا ساخنًا, ليس نارًا بالتأكيد, وليس مادة كيميائة حارقة, إنه كالثلج بارد جدًا, أبرد من كل الثلاجات وأجهزة التبريد الآدمية, أحيانًا يسمونه زمهرير, لذا لن تستطيع فعل شيء حياله, بل ستكتفي مجبرًا بالنظر إليه, وربما جمعته بقدميك الدافئتين تحت جواربك وحذائك الأسود, ربما صنعت تلاً صغيرًا ليتسلقه من وقت لآخر إذا شعر بالحاجة لذلك, وقد ينتبه بعد دقيقتين فقط إلى أنّه يلبس قفازًا جلديًا, ويفكّر في صنع رجل الثلج الحزين دائمًا, بالجزرة التي تصبح أنفًا في أيام الشتاء, وبالفم الدائري, وقبعة الشتاء التي تجعل الحزن قبيحًا أكثر وأكثر.

صوت الحزن بدا حزينًا هو الآخر حين سمعه أيوب وهو يقف تحت السماء الشاسعة, ما من شيء أكثر سوداوية من الأفكار في رأسه الخائف, ولا ينفكّ يفكّر في الدّخول لتفقّد جسد إيليف النائمة وليطبع قبلته الأخيرة, سيخبرها أنّ الحياة مريعة لولا عيناها, ويعتذر لها وجهًا لوجه عن كل ما حدث وما سوف يحدث له في المستقبل الغامض, سيعتذر عن تركها تذهب وحيدة إلى حتفها, عن ساعتها الأخيرة التي بسببه قضتها في الانتظار والقلق, سيعتذر لأنها أغمضت عينيها وهي غاضبة عليه, سيعتذر لأنه أضاف إلى حياتها نهارًا آخر ابتدأ بخيبة صغيرة تقرص القلب, سيعتذر لأن عينيها طافتا فوق الحديد فيما جسدها مرضوض تحته, سيعتذر ويخبرها أن الذنب ينهش قلبه وأنه لا يعرف ماذا يفعل, سوف يخبرها بأنه طُرد من العمل وفقد البنت الوحيدة التي أحبّها ومن يدري ما الذي ينتظره في الخارج, وبأنّه سوف يعتني بنباتات الظل خاصتها, ولن ينسى أن يطعم الحمام في الحديقة العمومية أسفل بيتها كما جرت عادتها, وسوف تكون غرفة نومه دائمًا زرقاء كما أرادتها.

إن فقدان جوربك الأثير قد يبعث فيك الخيبة لدقائق, وفقدان حذاء قد يكدرك دقائق أطول, وفقدان قميصك المفضل قد يكدرك لساعات, وضياع الفرص يؤثّر بنا أياما, أما حين ينتقل الناس إلى الحياة الأخرى فإن الأمر يمتد لأشهر أحيانًا, كان أيوب يدخل في حالة من الضياع في كل مرة يفقد فيها شيئًا, أو يفقد فيها أحدهم مهما كانت طبيعة العلاقة بينهما.

أيوب لم يفقد شخصًا فقط, إذ فقد بفقدان إيليف الحلم, الفرصة, الكمال, خسر موسيقى الضحك الذي لا يجيده سواها, ومنذ الآن بدأ يفتقد لحضورها الصاخب في كل لحظاته, ومنذ الآن لن يكون هناك أحد يعود إليه كل ليلة ليتحدث إليه عن أحداث اليوم, فما من أحد في هذا الوجود سيحب أن يستمع لأيوب وهو يحكي عن ببغاء جارته الذي كاد يسقط, ولا أحد سيتفاعل مع ملابسه التي يعيد لبسها على الدوام كما تفعل إيليف, ولن ينتبه أحدهم إذا ما كان شعره قد طال بعض الشيء, وإذا ما كان جميلاً بالفعل أم أنّه أصبح في حاجة لزيارة الحلاق.

لا أحد يستطيع تعريف الفقد أكثر من أيوب, فهو يدرك أن الأمر يستحق التفكير بجديّة, لكنّه لا يعني بالضرورة قدرته على ذلك, وإذا ما فرغ عقله من هذا الحزن فإنه سيكون مجبرًا على التفكير في أشياء سبق وأن عرفها من قبل, إيليف مثلاً, فهو كما اعتاد دائمًا أن يردّد بأنها امرأة لا تتكرر, لذلك لن يكون هناك أخرى لها العيون الناعسة الكبيرة, والخدّان المتورّدان على الدوام, عنقها الطويلة التي كان يظنّ أنها خُلقت لكي يتسلقها في العناق والضحك والأغنيات والقبل وحكايات ما قبل النوم حين كانت رأسه تسقط من شدّة النعاس إلى المهوى ما بين كتفها وعنقها, وإذا ما حاول التفكير بمعزل عن الحزن فهو ربما سيفكّر بأصدقائه مثلا, أو أصيص التوليب المجفّف الذي عكفت السيدة خيرية على تركه قرب بابها الخارجي كلّ نهار, أو في مديره السابق وهو يحاول التقرّب من الفتيات في فترات الاستراحة, وفيما يبدو فإن أيوب سيجد الكثير من الأمور للتفكير حولها وتصورها, لكنّه حين يغفو النهار على ظلّه ويحين الليل سيجد رأسه مكتظًا بهذه التفاصيل, ثم سيبحث عن مكان ليضع كل هذه الأشياء فيه ولن يجد, لقد كانت إيليف تتكفّل بكل هذه الأشياء, وتصفّي ذهنه كل ليلة حين تغني له مقطعًا أو اثنين من أغانيه المفضلة, ثم تعتذر حين تنتهي لأن صوتها ليس ملائمًا للغناء.

لقد اعتصرته ساعات مرهقة, لم يذق فيها طعم السّكينة, وقد بدا له طيلة الوقت أن أحدًا يتسلل إلى ذاكرته, يشيع فيه أنفاس البرودة, والخوف والألم, سعيًا في سلبه السعادة التي كان يحسّ بها, ويستدرجه إلى المنطقة الرّمادية أولاً قبل أن يستحوذ عليه ويقوده كطريدة إلى السّواد حيث لا تراجع عن الانهيار إلا إلى انهيار آخر وكأن الموت قد اندس إليه. والأفضل له أن يسقط بهدوء وربما بحرص ليفسح المجال لإيليف لتصلح الأمر كما اعتاد, تأتي منذ البدء كما يحدث دائمًا فتصلح ما يصرّ على إفساده, وفي هذه الحالة سوف تأتي إيليف قبل النشرة الجوية الأخيرة, قبل الإعلان عن الربيع, من يعلم ربما ستستطيع تغيير قدرها بنفسها لتستعيد حياتها, وهو ما سيعيد حياة أيوب بالضرورة.

ظن أيوب أنّه لن تعود الحياة لسابق عهدها إلا بالعودة للمنزل والتظاهر بأن شيئًا لم يحدث, لعلّ أحد المتحكمين بهذا العالم يغيّر من رأيه ويحطّ غضبه على أيوب آخر ليس لديه حب

حقيقي كالذي لديه, حب يجعله لا يفكر بشيء آخر سوى الاستمرار بشغف أكبر, ربما حين يشعر الآخرون بهذه العاطفة سيتغير شيء ما في السيناريو الذي حدث اليوم, وسيبدأ اليوم من جديد بزيارة مفاجئة لمالك الشقة من أجل الإيجار الذي يتأخر أيوب عن دفعه أسبوعين حتى الآن.. فكّر أيوب في هذا بعد أن انفصل عن الواقع وأصبح يعيش حياة موازية صنعها بسرعة لتحلّ مكان حياته البائسة الجديدة, لذلك فقد تحرك على نحو غير متوقع وحمل حزنه وقلقه وخوفه ومزيج المشاعر الذي لم يتّضح بعد باتجاه شقته ليدفع الإيجار المتأخر وليبدأ يوما جديدًا, الذي ليس سوى يوم وهميّ جديد, سيخصصه للتعرف أكثر على إيليف التي يعرفها أكثر من نفسها, يعرف روحها المنطلقة بكل منعطفاتها, وجسدها الناصع, قلبها الذي لا يسكنه سواه, سيتعرف أكثر على الأشياء التي يعرفها, ثم يعيد التعرف على ما يعرفه بطريقة جديدة يجهلها, لكنّه مصر على ابتكارها.

ليس لدى أيوب أيّ شك تجاه حبه لإيليف التي لا يستطيع أن يبعد صورة جسدها المسجّى على سرير ما في مكان بات يجهله الآن, ليس لديه شك بأنّه سيكرر اختيار العيش بجانبها وإن كان ذلك على حساب نهاية جديدة تفوق هذه النهاية ألمًا وحزنًا, ولا تساوره الظّنون السّيئة بأن هناك شيئًا ما قد يُخلق في وقت لاحق قد يجعله يغيّر من إحساسه تجاهها, إذًا هو متأكد الآن بأن حياته قد انتهت, وإذا ما قسم النهاية إلى مراحل فإنّه يمرّ الآن بالمنتصف, العاصف والمخيف والممطر بغزارة العرق الذي يتساقط منه الآن, وحين كاد يصدّق موته تذكّر بأنّه لم يسمع بميّت يتعرق, وهو ما جعله حزينًا أكثر لأنّه سيستكمل عيش هذه اللحظات القاتلة.

تذكر أيوب في تلك اللحظة النظرة التي سرقها من نافذة باب غرفة العناية في المستشفى وإيليف مستلقية على السرير موصل بها العديد من الأنابيب الطبية, وتذكّر وجهها الذي لا يشبه شيئًا إلا وجهها, المطمئن حيث ترقد, وغالبًا هي ترى حلمًا جميلاً يتواجدان فيه سويًا, تذكّر وجهها المشرق في وسط وجوه أطبائه الذابلة, كان وجهها حيًّا وإن كانت قد خطت خطوتها الأولى إلى الموت, وقال في نفسه: لاشيء يضاهي وجهها في نومها إلا وجهها في صحوها!

يعرف أيوب من أين يأتي الليل الذي حلّ على حياته بعد أن غاب وجه إيليف, الظلام الداكن الذي أعمى عينيه وخوفه الذي يكبر كلما مرّ الوقت وغرقت الساعة في الظلام, ومشى به الليل مرغمًا إلى أسواقه المعتمة وعلى صوت حشرات الليل الصادرة من الحدائق المجاورة, حتى يغدو لا صوت يعلو صفير صرصار الليل, الذي يفرض سيطرته على الأغاني المتسربة من نوافذ المنازل والبارات المنتشرة على امتداد صفيره باتّجاه الفجر.

لا عجب في أن يتذكر أيوب ذلك الآن, والليل يحيط به كما يفعل الأطفال القرويون حين يشاهدون قطة, يتحلقون حولها, ويحاول الطفل الأكثر شجاعة من بينهم أن يقترب أكثر ليمسك بالقطّ الذي تخبره غريزته بأنّه في موقف خطر, فتفوح منه رائحة الخوف, كان القطّ سيحظى بالقليل من حسن الحظ لو كانت رائحة الخوف هي فضيحته الوحيدة, لكنّه وهو يملك أرواحًا سبعة لا يملك ما يعادلها من حظّ إذ تفضحه رجفة الرعب التي تهزّ بدنه والتي تدعو الأطفال إلى مهاجمته فور الإحساس بذلك الخوف.

ولسوء حظ أيوب فإن الليل يملك أنف كلب, ونظر عقاب, وقلب عاشق, وبالقدر الذي يكون فيه الليل كريمًا, فهو في الوقت ذاته لا يظهر رحمته ويستغل الفرص متى أتيحت له, لا عجب في أن تبكيه نشرة الأخبار الأخيرة في التلفزيون المحلي, والتي تعلن وبشكل ضمني لأيوب ولبقية المواطنين بأن الليل الدامس قد حلّ فعلاً وعليه وعلى أولئك الذين يملكون أيّ عداء لليل أن يكونوا حذرين, وبأنّهم لن يكونوا مسؤولين عن أية مضاعفات قد تنشأ عن الإفراط في السهر والأرق.

يعرف أيوب من أين تولّدت وتعاظمت عدوى الليل, في البدء كان الليل شيئًا جميلاً بالنسبة له, إذ يجد الوقت ليتحدث لإيليف أكثر, وليتسلل إلى بيتها من وقت لآخر في وسط الأسبوع حين يكون الجميع نيامًا, يدخل من باب الليل الخلفي ويقترب إلى الغرفة الخارجية المظلمة, ليجدها تجلس بهدوء على الكرسي الطويل أمام الباب, أحيانًا كان يحضر معه الآيسكريم ويجلس بالقرب من إيليف لثوانٍ ثم يتعانقان طوال الليل, دون أن

يتحدثا, وبعد أن يمر الوقت وتحين ساعة الوداع المؤقت يحملها إلى باب الغرفة ويتعانقان من جديد ويقبل جبينها ويعبر باب الليل نحو النهار القادم.

يعرف أيوب المسافة التي تحتاجها إيليف للوصول إلى غرفتها, وعطفًا على سرعتها وطريقتها في المشي والتسلل إلى غرفتها, يحسب ذلك في رأسه وينتظر دقيقة كاملة قبل أن يتّصل بها, ليتحدّثا عن ما كانا يفكران به وقت العناق.

لطالما كانت إيليف إنسانًا نهاريًّا, كزهرة غارديني تحتاج إلى الضوء لكي تنطق, وحينما يأتي الليل فإنّها تبدو أقل بهجة ومنطفئة, وذلك ما كان يقلق أيوب, ولطالما أحب أيوب أن يدعوها بغاردينا لأنّها لا تقل ألقًا, ولا رائحة, وتحتاج لإضاءة جيّدة بعيدًا عن أشعة الشمس المباشرة, وحين تكون في الجوار فإن المكان يغدو رطبًا ومنعشًا كما تحب أزهار الغارديني أن يكون مكانها.

هي أيضًا غير متطلبة كالزهرة تمامًا, التي تحتاج أن تروى 2-3 ريّات في الأسبوع صيفًا, وريّة واحدة في الأسبوع شتاء, وفي الوقت ذاته تغدق في الرائحة والحب والبياض, وإذا ما سبق لأحد أن اقتنى زهرة غادرديني وحيدة فهو بالتأكيد سيدرك ما الذي يمكنها تقديمه.

ما من مكان يتسع لقلب أيوب الآن, كما أنّه ما من مكان يستطيع أيوب الوصول إليه دون أن يمرّ بحزنه الذي تركه على الباب, كما أن شقتَه أيضًا ملغّمة ببقاياها, فهنا كانت تجلس إيليف على المقعد الجلدي, هنا تحديدًا كانت تضيع هاتفها كل مرة وعلى المنضدة التي أمام الكرسي كانت تفرغ محتويات شنطتها الكبيرة بحثًا عن الهاتف, أحيانًا كانت تسقط بعض العلكة والحلوى, تضحك بخجل وتناول أيوب بعضًا منها, وبالقرب من المقعد كانا يتعانقان باستمرار, وهناك في المطبخ لا تزال رائحة عطرها أقوى من العفن الذي سببته بقايا عشاء البارحة, ولا يزال وجهها معلّقًا في سقف الغرفة كسدرة منتهى حبه, وأقصى ما كان يطمح إليه, وحين ينظر من النافذة للخارج فهو لا يرى إلا شتلات أشجار الظلّ التي تزين المكان.

يظن أيوب بأن إيليف اكتسبت مهاراتها في تزيين المنازل من والدتها, فيما ترى هي بأن ذلك لم يكن سوى مصادفة, كما أنّها في أحيان أخرى لا تجد تلك مهارة بل ذوقًا شخصياً خالصًا, ولطالما سبب هذا النقاش بين أيوب المتحمس لإيليف وبين إيليف التي يزعجها هذا التقدير المبالغ به تجاه أمر لا يشكل لها أية أولوية في حياتها, ويزعجها تكرار أيوب لهذه الأفكار, وفي أحد مساءات الخميس وفي الوقت الذي كان أيوب يستعدّ للخروج مع إيليف التي تجلس في الخارج تنظّف منزله, وتعيد ترتيب نبتات الزينة بالقرب من النافذة, قبل أن يخرج متأنّقًا ليمضيا إلى أحد المطاعم القريبة, ويرى إيليف تحرّك يدها فوق الأوراق الخضراء فتزداد اخضرارًا وتنتشر رائحة الزهور, مضى إلى منتصف الغرفة وأخبرها من جديد بأنها بارعة جدًا في ترتيب الأشياء وتحديدًا فيما يخص النباتات, وراح يتحدث بشغف عن حالة الأوراق والشجيرات قبل مجيئها وبعد مجيئها, وهو ما أربك إيليف تمامًا, وقدّرت في الوقت ذاته مدى شغف أيوب في الحديث عنها بهذا الولع, لكنّها كانت مجبرة على أن تصرخ في وجهه وتخبره بأنّه يبالغ دومًا فيما يتعلق بها, وراحت تتحدث بهدوء بعد أن ذهبت ثورة غضبها وتتحرك في كل الاتجاهات, لكنّها لم تكن مدركة بأنها انهمكت في إعادة ترتيب النباتات مرّة أخرى, الأمر الذي أضحك أيوب, وأضحكها أيضًا.

كم يبدو الأمر مريبًا بالنسبة له الآن, وهو لا يعرف طريقًا محددة يسلكها, وإذا ما اختار طريقًا عشوائيًا فإنّه كذلك لن يعرف المخارج التي عليه اختيارها حتى يصل إلى مكان ما, والمعضلة الأكبر في هذه المتاهة الدوّارة أنّه لا يدرك بالفعل إلى أين يريد الهرب, كل ما يدركه في هذه اللحظة أنّه أصبح من المستحيل البقاء في شقته, وأدرك بطبيعة الحال بأن فكرة العودة إلى هنا كانت ضربًا من الجنون, لذلك فإن عليه التوجه دون تفكير إلى الخارج, حيث الهواء الذي لم يتشبع بعد برائحة الفقد, الهواء الذي يحتاج إليه بشدة, لفرط ما اختنق بدموعه التي ارتجعت إلى داخل حلقه واختلطت بالمخاط والبلغم.

يعلم أيوب أن الآدمي يجوع, وبأنّه لا يحتاج لأن يذكّر آدميًا آخر بالجوع, فهو غريزة أساسية يدركها الجسد والعقل سويًا, وهناك دائمًا حلول لمثل تلك الحاجات التي يطلبها

الجسد, كأن يأكل تفاحة مثلاً, ويعلم كذلك أنّ الحزن يثبت نفسَه للعقل والجسد أيضًا, لكن ما من شيء يستطيع أن يسدّ هذه الحاجة إلا الوقت, وفي هذه الحالة فإن الوقت هو عدوّه اللدود, والذي هو سبب كل ما يحدث له, وكل ما حدث قبل ذلك وما سوف يحدث. وإذا ما استمرت حياته على هذا النحو فإنّه لا أحد يستطيع تغييرها, وإن احتمالاته ليحظى بليال هادئة باتت محلّ شك, وقد يحدث أن لا يحدث له شيء, فيبقى دون ظلّ ما تبقى له من الوقت, وقد يصبح ظلاً دون جسد.

الظلّ ليس ميتًا, لكنّه في الوقت ذاته ليس كائنًا حيًا, والرمادي ليس لونًا أصيلاً بل هو أسود متخاذل, أو أبيض خائن, إذن فهناك لـبْس, بل هناك أشياء تحتاج إلى توضيح لتبدو الأمور أكثر تماسكًا! فمثلاً, لو افترض أيوب بأن هناك عشرة طرق كان من الممكن أن يسلكها عشية اليوم السابع من شهر مارس 2004, الليلة التي التقى فيها بإيليف, فإنّه في كل طريق من هذه الطرق كان سليتقي بها بالتأكيد, لقد كانت قدره الذي آمن به وصدّقه بعد ذلك, قبل أن يُدخل الموت الشك إلى قلبه, ولطالما أصابه في وجهه, مخلّفًا أثرًا يبقى إلى الأبد, وفي هذه المرة كانت الشظية في قلبه, هو أيضًا لا يعترف بالموت الذي يأتي بغتة, يشعر في أعماقه أنه موتٌ يناسب أبناء سائقي الشاحنات, والدراجين على الطرق السريعة, ويعجز عن معرفة السبب الذي يدعو عقرب الساعة إلى استخدام شاحنة بدلاً من سمه لقتل أحد ما.

إنها مرحلة متقدمة من الألم, أن يختلط على أيوب نوم إيليف في الحجرة البيضاء بموتها, بمقتلها, بغيابها, بجنون الفكرة التي تعتمر رأسه الآن وتشير له بأنه في مكان ما على الأرض هناك آخرون يفقدون ساعاتهم أيضًا, وآخرون يموتون لأنهم أطالوا انتظار أحبائهم, وبأن هناك من قد يفوته القطار الآن, وهو أمر دائمًا ما كان يبكي أيوب, يبكيه أكثر أن تفوت أحدهم الحافلة لأن أحدهم نسي أن يستمع إلى أخبار آخر ليلة في شتاء تلك السنة.

هذه القطيعة وهذا الجهل يحملان أيوب على أن يسأل, أين يمكن أن تختفي هذه الساعات التي تخصم من رصيدنا كل شتاء, يقول بعضهم أنهم يعيدوها لنا حين يأتي الصيف, لكن

أيوب يريدها الآن, نقدًا ولا يقبل المقايضة والشيكات الوقتية, فقد أيوب ساعة وفقد الآخرون في المدينة كذلك, وفي كل يوم يفقد آلاف المسافرين ساعات أو يكتسبون غيرها, وكم من المسافرين تركوا الكثير من واجباتهم وراءهم بحجة الوقت, ما الذي سيؤول إليه الآخرون الذين قد ينامون أكثر مما فعل أيوب, ومع أنّه الأسوأ على الإطلاق في حساب الوقت, إلا أنّه يريد ساعته التي أخذت منه, ولا يهمّه كيف يقضيها, ولا كيف تنقضي, سواء على كرسي الحمام, أو على عتبات مسجد, أو في الطريق يراقب صغار العصافير وينتظر الفرصة المناسبة لإلقاء الحجارة عليها, وقد تكون الفرصة في هذه الساعة المسلوبة, يريد معرفة إلى أي مكان تؤول كل هذه الساعات, من يستأثر بها دوننا, من يستطيع خلق عمر آخر له عبر سرقتنا هذه الساعات, ولا يريد أن يجازف كثيرًا في المرة القادمة التي سينام فيها.

الفصل السابع

ما الذي كان يوجد قبل اختراع الساعة؟!.. كانت الشمس تشرق كل يوم برشاقتها المعهودة, تتمرجح في الأفق حتى يأتي وقت نومها ثم تذهب لتستلقي في فراشها السماوي, ليظهر القمر الحارس الليلي للعتمة والظلام, يحلّ محلّها ويتمرجح في الأفق كذلك, يسير بخجل إلى الجهة الأخرى, ويختفي تمامًا حين تستيقظ الشمس وتلبس ضوءها لتعلن عن يوم جديد, يأتي جملة لا مجال لتجزئته إلى 24 ساعة, وإذا ما كانت التجزئة ضرورية إلى هذا الحد فإنّه يمكن قسمته إلى نهار وليل دون أية تفضيلات أخرى.

حين ينظر أيوب إلى حياته من الأعلى فإنّه يستطيع بلا شك وضع عناصرها البشرية أمامه بكل سهولة, فهو بالرغم من وحدته الشديدة التي يشعر بها الآن بعد أن فقد كل شيء, لم تكن حياته مليئة بشيء عدا إيليف, وحين يحاول أن يتذكر أولئك الذين تقاطع معهم في أنقرة في السنوات القليلة الماضية فإنّه يستطيع حصرهم بأصابع اليد الواحدة, فهو بالتأكيد يتذكر خيرية وطائرها المزعج, إذ لا يمكن أن يبدأ يومه دون أن يتقاطع مع

وجودها, هناك أيضًا حارس العمارة وإن كان وجوده هامشيًا في حياة أيوب إلا أنّه ملهم له أحيانًا, ومهمّ في معظم الوقت, ومن ثم سائقي الحافلات الذين يقلونه صحبة إيليف كل صباح إلى العمل, ولا يوجد سائق على وجه التحديد يعرفه أيوب, فسائقو الحافلات يتغيرون طوال الوقت بحسب الوقت الذي يصعد فيه أيوب إلى الحافلة, وهؤلاء لا يمكن أن يضعهم أيوب في قائمة الأشخاص في حياته, فدائرته ضيقة ولا تتسع لأناس أكثر عدا أنّهم يتغيرون على الدوام, لذلك فأيوب لم يحاول قط أن يبذل أكثر من ابتسامة صباحية سريعة يمرّرها على وجه السائق كما يمرّر بطاقة صعود الحافلة المدفوعة مسبقًا, هناك أيضًا بالتأكيد مديره الحقير, وقائمة زملائه الطويلة التي تبدأ علاقته بهم من البريد الإلكتروني وتنتهي بقدر الإمكان هناك بالإضافة لبعض التقاطعات عند ماكينة إعداد القهوة في آخر الرواق الذي يؤدي إلى مكتبه الصغير.

نظر أيوب إلى تلك القائمة, وقرر إضافة بعض الأسماء للّذين أثّروا في حياته بأي شكل, فلم يجد أحدًا يمكن إضافته إلا سائق سيارة الأجرة الذي قضى نحبه مع إيليف, وسائق الشاحنة الذي يجهل مصيره, ولا يملك أي فضول في معرفة ما الذي حلّ به, ولا يشعر بأي حال من الأحوال بحاجة إلى أن يكرهه أكثر أو أن يعطف عليه, فخانة المشاعر التي يحتملها جسده الضئيل ممتلئة بالحزن والفقد, ولا مكان إلا لهما فقط.

لقد كان وقتًا مريرًا لأيوب ما حدث في الساعات الأخيرة من حياته, لقد كان وقتًا مريرًا, فكّر أيوب في هذه الجملة ومن ثم سكت ليفكر فيما يجب فعله, خصوصًا بعد تصاعد إحساسه بالغبن تجاه ساعته التي سلبها رجال الحكومة بقرار إنهاء التوقيت الشتوي وبداية توقيت آخر, كان هذا السؤال, أكثر ورودًا وترددًا, يطرحه استغرابًا, حسرة, وأحيانًا يطرحه فضولاً يتّبعه رغبة عارمة في معرفة كيف تنازل الجميع بهذه السّهولة عن 3,600 ثانية بشكل سنوي, وهو ما يعادل 216,000 إذا ما عاش الإنسان 60 سنة, في حين أنّه أحيانًا يستجدي مديره أو مالك البناية التي يقطن فيها بعض الساعات لينجز عملاً ما, أو ليتدبر ما ينقصه من قيمة إيجاره, وبالتأكيد لن يجد أيوب إجابة تسدّ فم السؤال الشره لمعرفة الحقيقة, التي تبدأ في مدينة غرينتش وتنتهي بها.

تساءل أيوب ما الذي حدث لساعات الآخرين في حين أنه قضى ساعته وهو يقتل إيليف, ما الذي كانت تفعله العجوز خيرية في الوقت الذي كان أيوب لا يزال يضع حلمه الأخير في مكانه, ويستعدّ للصحو ليبدأ يومًا ربيعياً لم يأتِ بعد, فهو لم يرها حتى هذه اللحظة ولم يسمع منها أو من الببغاء الأفريقي الذي كان يعوّض البناية ما تحتاج له من صخب الأطفال, القاذورات, والألفاظ البذيئة, في الحقيقة كانت خيرية ولسبب مفاجئ قد ذهبت لزيارة ابنتها في الشمال, والتي يبدو أنّها قد فقدت مولودها, بعد أن استيقظت هي الأخرى في آخر أيام الشتاء وهي تسبح في بركة من الدماء, التي ظنتها لأول وهلة دماء المخاض, لكن ذلك لم يكن صحيحًا على الأقل بالنسبة للأطباء الذين أعلنوا حالة الاستنفار ليدفعوا الطفلة الميتة للخروج لحياة لن تراها أو تعيشها, الطفلة التي كانت تخطط والدتها لتسميتها إيليف أيضًا.

أيوب لا يعرف هذه المعلومة, ولا أظنه سيعرف حتى بعد أن تعود خيرية إلى المدينة, فهي بالتأكيد لا تتجرّأ على ذكر هذه القصة, وإذا ما ساقها القدر لتقصّها فإنّها ستتجاوز التفاصيل التي تتعلق بحلم الأم والاسم, كما أن هذه القصة سوف تقضي على أيوب بكل تأكيد, وسوف تكون طلقة الرّحمة التي لن تود خيرية إطلاقها إلا على الببغاء الذي أصبح كبيرًا في السن, ولا تستطيع الاستغناء عنه.

في الساعة الثامنة بحسب توقيت تركيا, السابعة بتوقيت أيوب كانت خيرية تغلق بابها بالمفتاح, وتحمل قدميها الثقيلتين لتنزل الدرج, في الوقت الذي تنتظرها في الأسفل سيارة أجرة تحملها إلى بقعة الدم, وطوال تلك الساعة غفت خيرية غير مرة حتى وصلت إلى ابنتها في مستشفى المدينة, لذلك لم تكن الساعة مهمّة بالنسبة لها عدا أنّها لبّت نداء ابنتها بعد هاتف مفاجئ هزّ شقتها الهادئة.

أما السيد كامل مدير أيوب فقد كان يستمني في سريره الذي فرّت منه زوجته قبل سنوات إلى رجل آخر, وبعد أن قذف بما في داخله عاد للنوم وهو يحلم بما سوف يفسده في حياة الآخرين, الآخرين الذين كان من بينهم أيوب, وكان يحظى بمرتبة متقدمة من الضغينة

بسبب حادثة الكلام الفاحش على بريد العمل, لذلك لم يكن أيوب يحاول أن يعرف حقيقة ما فعله في الساعة المفقودة منه, لكنه كان مجبرًا على ذلك.

سائق الأجرة لم يكن أكثر حظًّا من أيوب, فقد كان يعمل في ذلك الصباح لأن سائقًا آخرَ ثمل وهو يعمل, ومن ثم اصطدم بسياج حديديٍّ أدى لأضرار بالغة بالسيارة, ولأن سائحًا غربيًا ما كان قد طلب من الشركة التي يعملان بها توصيله إلى المطار الدولي للّحاق بطائرة ما, فقد اتصلوا بمهيمت الذي كان للتو قد وضع عشاءه/إفطاره على جريدة ما في غرفته البسيطة, وبعد أن تناول طعامه بسرعة خرج والنوم يملأ رأسه بالضباب والأحلام باتّجاه جادة حلمي الشهيرة بالفنادق ليحمل الرجل الغربي باتجاه المطار.

كان مهيمت في تلك الأثناء يلعن التاكسي والسّواح الذين لا يعلم لم يأتون إلى أنقرة من أجل السياحة, لا شيء هنا إلا تمثال أتاتورك الشامخ في منتصف المدينة وبعض المجمّعات التجارية المتواضعة, وفكّر في أكثر من موضع بأن يجد مخرجًا آمنًا ليعود إلى سريره وينام كما يفعل كلّ الرجال المتعبون.

تذكر مهيمت في تلك اللحظات ما الذي قد يدفعه السائح الغربي كبقشيش نظير هذه الخدمة في الوقت المبكر, فعدل عن رأيه وواصل سيره بثبات نحو الفندق, كانتْ ساعة السيارة التي يقودها تشير إلى الساعة السادسة و 32 دقيقة بتوقيت سيارته, وهو توقيت ابتكره ليتغلب على التأخر الذي قد يسببه ازدحام طرقات المدينة بعض الأوقات, فيما كانت ساعة تركيا تشير إلى السادسة و25 دقيقه والتي تسبق ساعة أيوب بساعة كاملة, في الحقيقة تلك لم تكن الساعة المقصودة, فتلك الساعة لم تكن مصدر القلق لأيوب, لكنّها ستؤثر بشكل مباشر في حياة مهيمت وأيوب على حد سواء, وصل مهيمت وحمل السائح باتّجاه المطار, وحصل مهيمت على بقشيش يفوق راتبه يمثل كل ما تبقى في محفظة الرجل الغريب من العملة التركية المحلية, فرح كثيرًا بتلك الأموال, ابتسم له وودّعه بطريقة تشي بأنّه لن يلتقيه مجدّدًا, وهو ما حدث على وجه الدّقة.

كان صوت المذياع جميلاً في ذلك الصباح, ربّما بسبب السّعادة الغامرة والمؤقّتة التي غمرت مهيمت لأنّه حصل على بعض الأموال التي ستساعده للانتهاء من أعمال الصيانة التي يحلم بأن ينجزها في غرفة جلوسه, لقد بدأ يفكّر في طريقة متحفّظة لصرف هذه الأموال دون بذخ، ولتوفير ما يمكن لما قد يصادفه في الأيّام المقبلة.

الأحلام هي أكثر ما يجيده الفقراء, ودائمًا هناك من يتربص بتلك الأحلام ليفسدها بقصد غالبًا, وأحيانًا دون تعمّد, ففي الوقت الذي كان مهيمت يحلم حلمه الصغير الذي سينتهي منه بعد دقائق, رأى رجلاً يقف إلى جانب الطريق أمام سيارته, كانت السيارات الأخرى تعبره بسرعة فائقة دون التوقف أو التفكير بذلك, كان مهيمت قادرًا على فعل الشيء ذاته, وربما كان مهيمت هو الشخص الأكثر حاجة لأنّه يفعل الشيء ذاته, وبالرجوع إلى ساعاته الـ24 الماضية هو لم ينم إلا 3 ساعات متواصلة وساعة على الأكثر بشكل متقطّع كلّما سنحت له الفرصة وهو ينتظر زبونًا ما, أو يقف في ازدحام السّيارات عند إشارات المرور المكتظة, فكّر بكل هذا وقرّر أن لا يتوقف, لكنّه وحين مرّ بمحاذاته تقاطعتْ نظراتهما بشكل عفوي.

لم يكن سهم حب ذلك الذي أطلقته عينا الرجل الذي يبحث عن مساعدة, بل سهم شفقة أصاب مهيمت وأجبره على الوقوف بعد أن تجاوزه بأمتار معدودة, توقّف بطريقة مفاجئة والتف بجسده للرجوع بالسّيارة, ووقعت عيناه على السّاعة التي أشارت في ذلك الوقت إلى السابعة, وهو ما يعادل الساعة السادسة بحسب ساعة أيوب, عاد بسيارته حتى وازى الرجل الذي اقترب بدوره من النافذة التي فُتحت من قبل مهيمت, وبعد أن ألقى عليه التحية الصباحية وقص له ما حدث له ولسيارته ترجّل مهيمت من السيارة وفتح شنطة السيارة واستخرج عدّته لمساعدته.

لقد نجح مهيمت في مساعدة الرجل وعادت سيارته للعمل مجددًا, بعد أن أخبره بأن هذا الإجراء مؤقت وبأنّه بحاجة لزيارة مركز للصيانة لإصلاح العطل بشكل دائم, كانتْ تلك اللحظات مهمّة في صباح مهيمت أيضًا, فهاهي الدفعة الثانية من السّعادة تغمره وتطير به

وسط أغاني المذياع التي بدأت توافق ذوقه أخيرًا, كان يغني مهيمت في تلك الأثناء, متجهًا إلى بيته بالقرب من محطة الحافلات, فكر مهيمت في السّعادة وحاول أن يصفها بكلمات بسيطة ليدوّنها في المفكرة الصغيرة التي يحملها دومًا في جيبه لأغراض تسجيل المصاريف ولأشياء أخرى لكنّه لم يستطع, لذلك رسم وجهًا مبتسمًا وشمس مشرقة, في الحقيقة لم يكن رسم مهيمت جيدًا على الإطلاق, لكنّه كان صادقًا ويصف الحالة التي يشعر بها على وجه الدقة, ويشعر بأنفاسه التي قد أقلعت عن التدخين مؤخرًا , لهذا السبب وللأسباب التي ساقها القدر في الساعة الأخيرة قرّر مهيمت بأنّه برغم ضيق الحالة والعوز هو سعيد.

استغرق مشوار مهيمت السعيد من طريق المطار إلى حي أيوب وهو الحي الذي يسبق الحي الفقير الذي يقطن فيه 45 دقيقة, إذًا فالساعة تشير إلى السابعة و52 دقيقة بحسب توقيت سيارته, 45 دقيقة من الترقّب دفعت إيليف كذلك إلى أن تيأس من الانتظار أمام محطة الحافلات منتظرةً أيوب الذي ما يزال يحارب كوابيسه ويعدّ العدّة للصحو, وفيما كانت تحمل حقيبتها بعد أن فاتتها الحافلة الأخيرة وتتقدم ببطء نحو طرف الرصيف لتمدّ يدها لسيارات الأجرة, كان مهيمت يفكر في صيانة غرفة الجلوس وفي مخدته بالتساوي, ويمرّ بالشارع ذاته متجاهلاً أولئك الذين يشيرون له بالتوقف, لكن النظرة ذاتها التي أطلقها الرجل الذي كان يقف على جانب الطريق لتعطّل سيارته انطلقت من عين إيليف كذلك فأجبرته على التوقف.

توقف أولاً لأنها فتاة, وثانيًا لأنّها ترتجف من البرد, وثالثًا لأنّها بدت مستعجلة, المهم أنه توقف, وقال لنفسه أنّه توقف لأنّه بحاجة لتفقد إطارات السيارة, وحين صعدت إلى السّيارة رافقتها غيمتان أو أكثر من غيوم مدينة أنقرة الخجلة في ذلك الوقت من السنة, ورائحة سيتذكرها بقية حياته, ثم أزاحت مؤخّرتها بعيدًا عن المرآة التي في منتصف السيارة إذ كانت تتجنب أن تلتقي عيناها بأحد في الصباحات, لظنّها بأن عينيها في الصباح تكون أقلّ جمالاً بعد ساعات النوم الطويلة, أيوب النائم في هذه اللحظة يعارض هذه

النظرية, ومهيمت أيضًا قال في رأسه أن لها عينين جميلتين, وهذا سبب آخر للسّعادة هذا الصباح.

ظلّت إيليف صامتة, وفكّر مهيمت في أن هذا الصمت جميل, لذلك آثر أن يستمع لصمتها ولا يقاطع محاولاتها الحثيثة للوصول إلى هاتف أيوب المغلق, لم يدم هذا الصمت طويلاً إذ انكسر حين سألته عن الدمية التي يعلقها على المرآة الأمامية, فتحدّث مهيمت عن كل شيء عن الدمى, عن الصباح الجميل, عن درجات الحرارة وبدء الربيع, وتحدّث عن السياسة وأشياء أخرى. أراد أن يعتذر لها عن ارتطامه بذراعها حين نزل من السّيارة لتفقد العجلات, النعاس يجعله أخرق لكنه لم يقصد أذيتها, إنّه سائق أجرة لكنّه ليس بهيمة, وأراد أن يشكرها لأنّها أتاحت له فرصة الثقة بين غريبين قد لا يلتقيان مرّة أخرى, لكنّه لم يجد الكلمات المناسبة, فواصل الحديث عن كلّ شيء.. قصة, قصتين ثم سهت عنه إيليف التي كانت تضع وجنتها على النافذة الباردة, وتنظر لكل ما هو ملوّن في الخارج, وتتوق للقاء أيوب لإخباره بما فاته هذا الصباح.

لم يحب مهيمت الازدحام المروري في يوم ما كما أحبه الآن, فهو يعطّل الحركة تمامًا, ويتيح له وقت أطول لاختلاس النظر لإيليف ولشم رائحتها, كان مهيمت يستطيع أن يقضي بقية يومه على هذا النحو, يستمتع باللحظة البريئة التي تجمعه بفتاة لها رائحة زهرة غارديني, وتجلس بالقرب منه ويحسّ بصوت أنفاسها, وفكّر غير مرة بأن يسلك طرقًا أطول لكي يتسنى له البقاء طويلاً في المكان ذاته مع إيليف, لكن هناك من كان يرفض تلك الفكرة بالجملة, ليس أيوب بالتأكيد, بل الشاحنة التي تتجه له الآن بسرعة وسائقها رجب الذي تسمرت عضلاته وهو يتجه بشاحنته إلى سيارة الأجرة.

هذه النظرة الثالثة هذا الصباح التي تصل مباشرة إلى عين مهيمت, في المرة الأولى أشفق على قائد السّيارة المتعطلة على طريق المطار, ومن ثم افتتن بنظرة إيليف المتأخّرة عن العمل والموت في الوقت ذاته, وهذه النظرة الثالثة التي سيصنفها لو أسعفه الوقت ونجا بأنها نظرة استسلام من قبل رجب الذي تنطق عيناه بالشهادة والاستعداد للانتهاء, لم يكن

هناك متّسع من الوقت لمهيمت أن ينظر نظرة أخيرة لإيليف التي لم يصل لها بعد صوت مكابح السيارات وهي تنزلق على الإسفلت, ستحتاج أجزاء أخرى من الثانية لكي تدرك صعوبة الموقف, كانت الساعة تشير في ذلك الوقت إلى الموت, إلى الثامنة و23 دقيقة, الوقت الذي التحمت سعادة مهيمت المؤقتة بخوف رجب وقلق إيليف لتنفجر الإطارات ويتهشم زجاج السيارة والشاحنة, الوقت الذي انتبه فيه أيوب مفزوعًا إلى ساعته التي تشير إلى السابعة وثلاثة وعشرين دقيقة, فقام مسرعًا متعثرًا بشرشف سريره المقلم بالأزرق, وسقط من علوّ على يديه اللتين ركزهما بسرعة على الأرض, قبل أن يسرع إلى الحمام, لينظر إلى وجهه على المرآة المكسورة ليجد بأن جزءاً منه قد اختفى إلى الأبد.

الريـاض

28 ديسمبر 2011

1 شتيمة باللغة التركية وتعني الرجل الناعم ذا الميول الشاذة.

2 شتيمة باللغة التركة وتعني ابن العاهرة.

خيانات السيد وقت

«اليوم يبدو كل شيء مختلفًا، حتى من وجهة نظر أيوب الذي يقف متسمّرًا، يقوده عجزه عن البكاء أولاً وعن التفكير ثانيًا، وعن الحركة ثالثًا لمراقبة الأشياء، التي بدت سريعة أكثر من ذي قبل، وكأن أحدًا ما يعبث بجهاز التحكّم الإلهي، ما الذي أخل بهذا الترتيب الأزلي، وغيّر مسار الأشياء؟ وقتها تملّكت أيوب الفكرة المرعبة أنّ شيئًا ما يحدث، وأن ما يحدث سينهي حياته إلى الأبد، حياته كما عرفها، التي انتهت بالفعل عندما انطفأت عينا إيليف، ما الذي حدث؟ كان السؤال قد أمضّ روحه لتي تركها معلّقة، تحاول أن تفهم ما الذي حدث، لماذا افترق شال إيليف عن عنقها؟ ما الذي حدث منذ الثامنة التي جاءتْ متأخرة؟ لمَ تأخر عن الثامنة؟ لماذا تأخرتْ الثامنة عنه؟ لماذا فقد موعده مع الأخضرِ حول عنق إيليف؟ وعن القهوة في عينيها؟ كان يأمل أن يلحق بها، لتتك بطرف اثنين من أصابعها على ساعته، ومن ثم تقول له وحاجباها مُغضَبان: تأخّرت! كان سيضحك قليلاً، قليلاً فحسب.. ثم يأخذ رائحتها تحت ذراعه ويمضي.. لكن الإسفلت والساعة الثامنة أخذا منه كل شيء! وتركا روحه، مرتفعة قليلاً عن جسده تذهب وتجيء مع رفرفة الشال الأخضر الذي تعبث به الريح!»

ISBN 978-9948-425-38-0

9 789948 425380

Madarek مدارك

Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

الفهرس

1. الغلاف
2. رواية خيانات السيد وقت
3. الكتاب: خيانات السيد وقت المؤلف: أحمد ال...
4. رواية خيانات السيد وقت
5. الإهداء
6. الفصل الأول
7. الفصل الثاني
8. 8
9. الفصل الرابع
10. الفصل السادس
11. الرياض 28 ديسمبر 2011 1 شتيمة باللغة ال...
12. 12